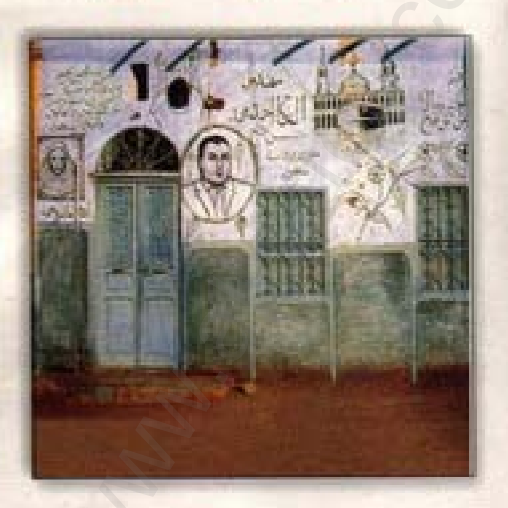
سيد قطب

طفلٌ من القرية



منشورات الجمل



الكتاب / طفل من القرية

المؤلف / سيد قطب

الصفحات / ١٥٥ ص – من القطع المتوسط

الطبعة / الأولى

الناشر / منشورات الجمل ، كولونيا – ألمانيا

مقدمة

هذه صور من حياة القرية عاصرت طفولتي منذ ربع قرن من الزمان ، لم أنمق فيها شيئا ، ولم أصنع أكثر من
نقلها من صفحة الذاكرة إلى صفحة القرطاس.
قليل من هذه الصور قد زال الآن وحلت محله صور جديدة..
وفي تسجيله هنا احتفاظ بصفحات من الحياة القومية والتاريخ الحديث في سجل الفنون.
والكثير منها لا يزال يعيش ولكن أهل المدينة المترفين لا يكادون يتصورونه ، لا في عالم الواقع ولا في عالم الخيال..
وفي تسجيله هنا ما يطلع الجيل الجديد على صور من الريف القومي بخيرها وشرها
ولعل لهم رأيا فيما ينبغي أن يبقى منها وما ينبغي أن يزول!

* * *

إهداء

إلى صاحب كتاب الأيام .. الدكتور طه حسين بك.
إنها يا سيدي أيام كأيامك ، عاشها طفل في القرية ، في بعضها من أيامك مشابه ، وفي سائرها عنها اختلاف.
اختلاف بمقدار ما يكون بين جيل وجيل ، وقرية و قرية ، وحياة و حياة
بل بمقدار ما يكون بين طبيعة وطبيعة واتجاه و اتجاه..
ولكنها – بعد ذلك كله – أيام ن الأيام.

سيد قطب
1/7/1945

المجذوب

مضى على هذه الأحداث أكثر من ربع قرن ، ولكنه لا يستطيع اليوم إن يسترجع صورتها دون
أن يحس في جسده بقشعريرة تتخلل عظامه في صمت كأنما استحال دمه إلى ماء مثلوج.
هذا الرجل المشعث الشعر ، الممزق الثياب ، العاري أحيانا من كل ما يستر الجسد ، المنطلق
في شوارع القرية
وطرقاتها ، وفي يده عصاه ينال بها كل شيء وكل أحد ، وهو يرسل همهمة مختلطة مخيفة ،
أو يقهقه في
صوت عال مرهوب.!
كان هو طفلا دون السادسة حينما اخذ الناس يتهامسون في القرية عن " الشيخ النقيب "
وسمعهم يقولون :
انه أخذ " الشربة " وإنها ثقيلة عليه..
"الشربة " ؟ ، انه يعرفها جيدا ، فانه ما يزال يذكر أن الحمى أخذته في ذات يوم ، فجرعوه
ذلك السائل المر
الكريه الطعم والرائحة ، بكل وسائل الإغراء والتهديد.
ثم كان بعد ذلك ما لابد أن يكون!
ولكن هذا الرجل : " الشيخ النقيب " ما بال " الشربة " تخيله هكذا شيطانا مشردا مروعا ،
مسلوب الرشد ، شارد النظرات ، غريب الأطوار ؟
وأية " شربة " تلك التي تفعل بالناس " الأفاعيل " ؟
كان الرجل يمزق ثيابه تمزيقا ، ثم يتمرغ في الوحل ، أو يهيل على رأسه التراب وعلى جسده
العاري ، حتى يكتسي أديمه من التراب والوحل ثوبا آخر غير الثوب الممزق المخلوع.
كان ينطلق في طرقات القرية صائحا بصوت مجلجل مرعب : الله .. الله .. الله ، أو يسير في
خطوات متوانية وهو
يهمهم ويزوم : إي .. إي .. إي .. ، أو ينفخ صدره بالهواء ، و يقب ويغطس بقامته وهو
يقول : حي .. حي .. حي
كما كان في كثير من الأحيان يأوي إلى " مصطبة" أو ركن فيقبع هناك في صمت مطبق كأنما
هو " مبنج " لا يأتي جسده بحركة ، ولا تطرف عينه بنظرة .. ويبقى على ذلك الساعات الطوال
في بعض الأحيان .
فما بال " الشربة " إذن وهذا كله في نفس الطفل الصغير ؟
لقد عرف فيما بعد أنها " شربة الولاية " !، وان كبار الأولياء الصالحين يجتمعون في كل عام

برئاسة " قطب الغوث " على جبل قاف ، ثم ينظرون في أحوال العالم ، ويقضون فيه بما يشاءون ! وعلم أن من قضائهم توزيع " الشرب"
على من يقع عليهم الاختيار من عباد الله المختارين .
فتارة تصيب " القرعة " رجلا طيبا وديعا ، وتارة تصيب رجلا قاسيا عنيدا ، فيستحيل هذا او ذلك " مجذوبا."
فأما الأول فتكون شربته هادئة ، فيسهل عليه قضاء فترة " الانجذاب " ويجتازها بسلام إلى مرتبة " الولاية "
وأما الآخر فتكون شربته عنيفة ،فيعاني الشدائد في قضاء هذه الفترة القاسية حتى تطهر نفسه ويلين طبعه
وتصفو روحه وعندئذ ينتقل إلى المرحلة التالية ، فيهدأ ويطمئن. !
وسمع كذلك تفسيرا ثانيا لشدة الشربة وسهولتها : فلقد يرجع الهدوء والاضطراب إلى مقدار " الشربة. "
فتارة تكون الجرعة كبيرة ، فيتلقاها صاحبها في جهد واضطراب .. لأنها تتجاوز طاقته ، ويظل يعاني سكراتها وصراعاتها أمدا طويلا ، وجسده يتمزق وقواه تضطرب ، حتى يكتب الله له السلامة في النهاية ، فإذا هو في
مرتبة رفيعة في ديوان الأولياء ! وتارة تكون الجرعة صغيرة ، فلا يجد صاحبها جهدا ولا مشقة في تقلبها ولا تطول
فترة الانجذاب إلا ريثما تستقر الشربة وتهدأ وإذا صاحبها ولي ، إلا أنه متأخر في الديوان. !

* * *

ولكن ألف تفسير وتفسير لم تكن كافية لبعث الطمأنينة في قلب الطفل الصغير.
لقد كان يسير هو ورفاقه أو منفردا ، فما يدرون من أين طلع عليهم " الشيخ النقيب " ! ، ولكنه يدري أن ريقهم كان يجف وأقدامهم كانت تتسمر في الأرض حينما "يهل " عليهم من أول الطريق ، ولو كان بينه وبينهم عشرات الأمتار .. كانت أرجلهم تكف عن الحركة ، وأنظارهم تتعلق به فلا تطرف ، وقلوبهم تدق في عنف ورعدة ، ولكنهم لا يتحركون ! ، كانوا أشبه شيء بـــتلك العصافير المسكينة التي تقف أمام الثعبان منومة ، وهي تدرك أنه سيلقفها ولا تطير .. أو كالفئران الصغيرة أمام القط الذي يسحرها قبل أن يثب عليها للافتراس .
ذلك أنهم كانوا يعلمون إلا فائدة من محاولة الفرار .
لقد قيل لهم إن الشيخ " يخطّي" فلما طلبوا تفسيرا لهذه " التخطية " فهموا انه ينتقل بخطوة واحدة في كل يوم من أيام الجمعة من القرية الكعبة ، فيصلي الجمعة هناك مع الأولياء

والصالحين ، ثم يعود.

وكانوا قد سمعوا الكثير عن طول الطريق إلى الحج ومشقتها وكان الحج يوم ذاك على ظهور الجمال بعد عبور " البحر المالح " ، ثم هاهو ذا الشيخ يقطع الطريق الطويل الوعر في خطوة واحدة خطوة في الذهاب وأخرى في الإياب .

فما جدوى الجري إذن والفرار ، و " فركة كعب " تجعلهم في متناوله من جديد ؟ وكانوا قد سمعوا أن العصا المخيفة في يد الشيخ تطول وتقصر كيفما أراد ، وان يده كذلك تتناول ما تشاء من قريب أو من بعيد ، حينما يريد .

فما جدوى الجري إذن والفرار ؟ وهذه العصا كفيلة أن تلهب ظهورهم وان تقصم أضلاعهم ، والرجل في مكانه لا يتكلف الخطو خلف خطواتهم القصار ؟

لا بل قد سمعوا انه يستطيع أن " يسمرهم " في مكانهم إذا أراد ، أو لم " يسمر " من قبل شيطانا مريدا كان يخيف الناس في طريق من طرق القرية ، وظل هذا العفريت "مسمرا " حتى الفجر ، فأخذ يستغيث بالشيخ

ويستجير، ويستميحه العذر والصفح ، ويبذل الوعود بأن يغادر هذه القرية كلها ، فلا يتعرض لأهلها بسوء ..

فلم يطلقه الشيخ حتى اخذ عليه العهود والمواثيق ، وهدده بسوء المصير ان هو اخلفها .. ومن يومها لم يعد

العفريت يظهر في ذلك المكان . !

فهل هم أسرع من العفاريت وأقوى ؟ لا فائدة ... لا فائدة .!

ولكن قلوبهم تكاد تسقط ، ومفاصلهم تكاد تسيب ، وريقهم قد جف ، فلم يعد فيه ما يكفي لتحريك اللسان ، وهم يجمعون هذا الريق ويبلعونه لتطرية حلوقهم من هذا الجفاف ، وعيونهم شاخصة إلى هذا الرجل الهائل الرهيب. !

ثم يمر ...

فإما أن ينحرف قبل أن يجتاز بهم في طريق من طرق القرية الملتوية الكثيرة..

وعندئذ يتنفسون الصعداء ، ويستجمعون ما بقي فيهم من قوة ، ثم يطلقون سيقانهم للريح ، وهم يلهثون فيذعر مميت ، وإما أن يلحقهم فيجتمع المساكين ويتكتلون ، و يخنس بعضهم في بعض كـــ الفراريج الصغيرة

حينما يهاجمها القط الجارح أو ابن عرس ، ثم يتقربون إليه في تملق يطلبون تقبيل يده ،وأعينهم مرتفعة شاخصة

إلى العصا الرهيبة في يده ... فطورا يسلمون ، وطورا يذوقون جناها المستطاب.!

وطالما سمعوا من الكبار إن هذه العصا من شجرة في الجنة ، وهم يرونها أمامهم قطعة من جريد النخل الذي

يعرفون ، أو أنها غمست سبع مرات في بئر زمزم ، وان من نالته منها ضربة فهو السعيد ،
فإنها لا تتناول إلا عضوا "مضوروا" أي مريضا - ولو لم يشعر صاحبه بمرضه ! – فما إن
تمسه هذه العصا حتى يتبرأ من كل داء . !

وكانوا يرون بعض الرجال يتعرضون للشيخ في الطريق ، ويتحككون به إن كان هادئا حتى
يثور ، لينالوا ضربات من هذه العصا على ظهورهم غالبا ، فقد كانوا يتوقون ان تنال وجوههم
ورؤوسهم ! ، ثم يذهبون راضين ، يدارون

الألم الذي يشعرون به ، ليقرروا أنهم لم يحسوا بالعصا إلا كطائف من النعيم . !

أما هم ، الأطفال ، فيعرفون جيدا طعم هذا الطائف السماوي ! إن ظهورهم لتتقلص تحت وقع
هذه العصا الملعونة

وإنهم ليحاولون أن يتظاهروا بما يتظاهر به الرجال فلا يطيقون.

على أن هيئة الرجل ذاتها ، ونظراته وصوته وحركاته كانت كفيلة ببعث الرعب في قلوبهم من
حيث لا يشعرون

وكان الطفل يعجب لشيء آخر غير ما يدعيه الرجال من لذاذة هذه العصا وطراوتها ، ان الرجل
يقضي معظم أوقاته

عاريا ، وقد تلبد شعر جسده ورأسه ، و" تعرقص " كجلد الفيل..

ومع هذا فإنه لم يلحظ غضاضة من رجل ، ولا حياء من امرأة ، لرؤية الجسد العاري القذر
الأديم .!

ولما كان دائم السؤال ، فقد قيل له : اسكت ، انه لم يعد إنسانا مثلنا ، لقد ارتفع عن التكليف !
انه الآن موهوب للولاية ، فلم يعد من عالم الأرض الذي نعيش فيه. !

* * *

ثم مرض ... كان يلعب لعبة تقتضي لي الجسم وتحريك العنق إلى الخلف ، فأصيبت مفاصل
عنقه بانحراف ، ومالت رأسه إلى أحد كتفيه ، فأصبح لا يستطيع أن يحرك رقبته إلا في اتجاه
واحد ، فإذا أراد النظر أو الالتفات اضطر أن يدور بجسده كله ، كما تصنع الضبع عندما تدور !
.

وطال المرض وكثرت " الوصفات " وبدأ أهله يقلقون عليه من هذه العاهة التي بدا أنها ستكون
مستديمة ، وأخذ الأطفال زملاؤه يرثون لحاله في أول الأمر ... ولكنهم بعد حين أخذوا
يتغامزون عليه ، ويقلدون هيئته الشاذة في غفلة منه ، ثم يضحكون ، وود لو يجد علاجا لهذه
الحالة المؤلمة بأي ثمن يكون.

ودخلت إحدى النساء فرأته ، ثم توجهت إلى والدته بالكلام :

قالت : أو تسكتين يا امرأة على الولد هكذا ؟
قالت في تأثر شديد : – وماذا نصنع ؟ لقد حاولنا كل شيء بلا فائدة.
قالت لها : أنا أدلك على الحل الوحيد .
ونظرت إليها الأم ملهوفة – ونظر هو أيضا – قالت : تدعينه ليلة للشيخ النقيبــ .
ولم تفهم الأم –ولم يفهم هو في بادئ الأمر– ولكن المرأة أزالت كل لبس ، وهي تقول :
واحد من العائلة ، يتبع خطوات الشيخ ، ويعرف أين يبيت ويضع الولد بجانبه ، ويتركه للصبح ، فيصبح في عافية.
ماذا ؟
لقد قفّ شعر رأسه ، واقشعر بدنه ، وهو يسمع هذا الاقتراح الرهيب .
هو يبيت ليلة كاملة إلى جوار هذا الرجل الغريب ؟ ولماذا لا يذهب إذن إلى جحر الثعبان ، أو عرين الأسد...
بل لماذا لا يلقى الشيطان وجها لوجه ؟
أم أنه هو مجنون .
ومع أنه لم يصدق لحظة واحدة أن هذا الكلام صحيح ، وأن المرأة تجد فيما تقول ، إلا انه لا يذكر أن شيئا من الرعب قد دخل كيانه طوال حياته مثلما داخله وهو يسمع هذا المزاح المرذول. ومع انه كان واثقا بأنه لن ينفذ هذا الاقتراح ، حتى لو استخدموا معه أضعاف ما استخدموه ليتناول " الشربة" من الإغراء والوعيد ، إلا أن نظرة تعلق بشفتي أمه ، كالذي ينتظر حكم الإعدام أو البراءة .
وابتلع ريقه وتنفس ببطء نفسا عميقا .. وأمه تقول:
لا ، لا ، وهل أنا جننت حتى أبيّت جنب المجذوب ؟ الأمر لله والكائن في علمه يكون .
ولم يكن إلا الخير والبركة ... ولكنه لا يزال يذكر هذه اللحظة ولا ينساها مهما تطاولت به السنون....

ضابط الجمباز

نشأ في أسره ليست عظيمة الثراء ولكنها ظاهرة الامتياز ... كانت في وقت من الأوقات
عظيمة الثروة ولكنها توزعت و تضاءلت الثروة بالميراث وبقي لوالده قدر لا باس به منها
ولكنه كان يتناقص دائما كان والده قد صار عميد الأسرة المكلف حفظ اسمها و مركزها في
الوقت الذي لم ينله من الميراث إلا نصيب محدود لا ينهض بما كانت
تنهض به ثروة الأسرة مجتمعة على حين لا يستطيع ان ينقص من تكاليف المظهر في الريف.
وكان هو بعد هذا متلافا مضيافا فزاد ذلك في التكاليف التي لا تحتملها ثروته و لكنه حافظ على
كل المظاهر
و المطالب على اللحظة الأخيرة و كانت والدته من أسرة مماثلة أو اعرق و قد وقع لها ما وقع
لأسرة الوالد حرفا بحرف و لكن زاد عليها أن اثنين من أخواله كانا قد أوفدا إلى الأزهر في
القاهرة شأن غالبية أبناء الأسر الريفية الثرية
فأنشأ هذا في الأسرة نوعا من الرقي العلمي بجانب الوجاهة الريفية يضاف إلى هذا كله أن جده
لوالدته كان قد قضى شطرا كبيرا من حياته في القاهرة هو وزوجته حتى إذا عاد إلى القرية
أنشأ فيها بيتا يقرب من بيوت العاصمة على قدر الإمكان في نظامه وتنسيقه وتقاليده ومستواه
وساعده المال على تحقيق ما أراد.
في هذه البيئة نشأ وكل ما حوله يشعره انه من وسط آخر غير وسط القرية فلما ناهز السادسة
من عمره فكر أهله في أن يبدأ حياة التعليم وانقسم الرأي:
فريق يؤيد ذهابه إلى الكتاب ليحفظ القران ويفوز بالبركة التي يفرز بها من يحملون كتاب الله
على قلوبهم و فريق يؤيد ذهابه إلى المدرسة الأولية لأنها أرقى و أنظف و القران يعلم فيها
كذلك إلى جانب العلوم الأخرى
و طال الجدل حوله وهو لا يدري ... وأخيرا انتصر فريق المدرسة واستقر العزم عليها واخبر
هو بهذا القرار فتلقاه
بالقبول ، ولكن بغير حماسة ظاهرة فقد كان أروح لنفسه أن يظل في الدار يلعب مع أخته التي
تكبره قليلا
أو يلعب في الشارع مع لداته الصغار.
وكان مدللا بعض الشيء لأنه وحيد أبويه بجانب بنتين هو أوسطهما فلم يتعود بعد التكاليف
التي لا مفر منها في
التعليم ولا سيما انه يسمع الناس يتحدثون بان الكتاب يقرص الأولاد اي يضعف صحتهم و

يعوق نموهم أما المدرسة

فقد كان يسمع عنها حديثا آخر لا يجعله آمنا فيها على العموم.

ولم تمض الأيام حتى هيئ للمدرسة ، جيء له بطربوش بعد أن كان يلبس الطاقية واشترى له حذاء بدل حذائه الذي

كان "نصف عمر" و فصل له قفطان صغير من "الشاهي "بدل الجلابية ، كان هذا زيا مبتكرا لا عهد للمدرسة به

جيء له به للترغيب و التدليل وكان لهذا اثر حاسم في اتجاهه للمدرسة فبسببها كان كل هذا العز و التكريم.

وفي الصباح الأول ذهب به والده و معه صديق إلى المدرسة...

ولهذه المدرسة تاريخ:

كان الكتاتيب هي دار العلم الوحيدة في القرية حتى افتتح مجلس المديرية هذه المدرسة ووكل أمر التعليم فيها

إلى فقيه و عريف فأما الفقيه من أهل بلدة مجاورة حفظ القران كما يحفظ القراء ، ثم حضر دروسا نظمتها الوزارة

في الحساب و المعلومات العامة و طرف من التربية ثم عين فقيها للمدرسة و أما العريف فهو أحد حفاظ القرية وصاحب

كتاب فيها و قد عينه المجلس عريفا ريثما تخرج مدارس المعلمين الأولية العدد الكافي ليحل مخل الفقهاء و العرفاء.

و هذا العريف كان موضع الثقة من أهل القرية فأبوه هو الذي علم في كتابه شيوخها واسمه مذكور دائما على انه

مثال الشدة والخلاص والشدة في معاملة الأبناء كانت مناط الثقة من الآباء فلما توفي أبوه تولى هو وأخوه إدارة الكتاب متبعين تقاليد أبيهما فيه حتى إذا اختير للمدرسة ورسم له مرتب قدره مائة وخمسون قرشا وأوكل أمر الكتاب إلى أخيه و ذهب هو إلى المدرسة كي يجمع كسب الكتاب إلى كسب المدرسة وان خسر بضعة تلاميذ

اجتذبتهم المدرسة بوصفها شيئا جديدا.

ولم تؤثر المدرسة في الكتاتيب في حقيقة الأمر ذلك انه لم يذهب إليها إلا أولئك الذين فشلوا في حفظ القران في الكتاب و لغوا طور المراهقة أو تجاوزوه ... فلما فتحت المدرسة أرسلهم أهلوهم إليها أو جاءوا هم بأنفسهم للفرجة

على الأكثر أو لإعادة المحاولة مع الأمل الضئيل.

ولما كانت المدرسة في حاجة إلى تأليف قلوب الأهالي و التلاميذ في أول الأمر فإنها قد اتبعت نظاما عجيبا في تقسيم التلاميذ.

لم تكن درجة العلم و المعرفة هي التي تهيئ التلاميذ لإحدى الفرق ولكن كانت السن هي التي تعين الفرقة

الملائمة للتلميذ ، فالطوال هم المرشحون للسنة الرابعة ولا سيما إذا كانت شواربهم قد خطت ثم يليهم من هم اصغر منهم في السنة الثالثة وهكذا حتى يصل الأطفال إلى السنة التحضيرية وهي تحضر للسنة الأولى ولكن هذه القاعدة لم تكن تتبع دائما فأبناء الأسر المعروفة في القرية كانوا يحتلون في الفرق العالية ، و لو لم تؤهلهم لذلك أجسامهم

ولم يكن من النادر أن يحضر والد تلميذ ليحتج على وضع ابنه في السنة الأولى بينما ابن فلان في السنة الثانية

وهو ليس اقل منه مركزا و لا ثروة فيجاب طلبه في الحال و ينقل الولد إلى السنة المطلوبة حتى لا يخدش شرف العائلة.

وتبعا لهذه القواعد لم يكن بد من ان يوضع هو الطفل في السنة الرابعة من أول يوم ولا سيما أن ابن خالته في هذه الفرقة و يحسن أن يجلس معه ليستأنس به ولكن ناظر المدرسة انس من والده شيئا من التنور و المعرفة فرأى أن يحادثه بصراحة وان يبين له أن من مصلحة الطفل أن يبدأ من السنة التحضيرية مع الأطفال ليستفيد و يسير في خطواته طبيعيا .... فاقتنع وتركه للفقيه وللعريف الذي كان معروفا لدى الطفل جيدا لأنه هو الذي يقرا في دراهم القران في شهر رمضان.

* * *

انصرف الوالد وصديقه بعد أن سلماه إلى المدرسة مع التوصية اللازمة ، التوصية التي رأى آثارها في هشاشة الفقيه وعناية العريف عناية بلغت حتى التدليل .

انصرفا ليعودا إليه قرب الساعة العاشرة يحملان أنواعا من الفطائر و الحلوى أعدتها أمه بعناية..

فلقد كان البيت كله في هذا اليوم مهتما قائما قاعدا كان حدثا جديدا يمر له.

ولكنهما يعودان فلا يجدانه بالمدرسة ، ولا في أي مكان ، أما لماذا كان ؟ ، فسره عند ضابط الجمباز ولا بد من قصة أخرى عن ضابط جمباز.

لم يكن من بد لمجلس المديرية أن يتبع في مدارسه أدق قواعد التربية ، ولما كانت الألعاب الرياضية جزءا لا يتجزأ من التربية لم يكن بد من أن يزاولها التلاميذ .. ولكن الفقيه كالعريف سواء ، لا يعرف شيئا عن هذه الألعاب الرياضية ... وهنا اهتدى مجلس المديرية إلى حل موفق سعيد أن يعين أحد جنود الجيش القدامى معلما للألعاب الرياضية بجميع مدارس مجلس

المديرية ، وعلى هذا الضابط كما كان يسمى أن يطوف بهذه المدارس في القرى المتناثرة في المديرية على مدار العام فيصادف أن يزور المدرسة مرة كل سنة ويصادف ألا يزورها بتاتا.
ولما كانت قرية الطفل من أرقى القرى المجاورة ، وفيها أسرات كثيرة معروفة بحسن الضيافة ، وكان هذا الضابط

يجد عند مجيئه للقرية ضيافة كريمة طول اليوم ، واستقبالا رائعا من أهلها ، لمجرد أنه " ضابط " قادم من البندر

بحيث يصبح وجوده في القرية بارزا له طابع خاص ، و محوطًا بحكات خاصة .. فقد دعاه هذا إلى أن يكرر زيارته لمدرستها مرتين أو ثلاث مرات في العام.

وكانت هناك حركات معهودة يعلمها للتلاميذ ، هي "صغادن" أي إلى اليمين ، و "صولادن" أي إلى اليسار ، و "مارش" أي سير إلى الإمام ثم "بير" أي رفع اليدين بحذاء الصدر ، و"هك" أي رفع اليدين إلى أعلى ، و"ات" أي اخفض اليدين إلى الجنبين ، و هذا يسمى التمرين الأول.

وهناك تمرينات ثلاثة من الألعاب السويدية المعروفة تؤدى بهذه الإشارات على التوالي بحسب التمرين:

"بير ، هك ، اتش"

و الويل كل الويل لمن يخطئ من التلاميذ في حركة من هذه الحركات .. إن عصا الخيزران التي بيده تلهب ظهره وجنبيه.

ثم ان الرجل كان يبدو في خيال هؤلاء التلاميذ الريفيين ، وكأنه الشيطان في سرعة الحركة وخفة الوثب وحفظه

العجيب للجمباز فكان هذا من زعقاته فيهم ، و تكشيراته لهم وعصاه التي يهزها في يده مهددا ...

كان له مثار رعب جارف ، حتى لقد كان يوم حضوره عندهم كيوم الحشر يشيب الولدان وطالما سمع هو من ابن خالته الذي يكبره عن هذا الشيطان – ضابط الجمباز – حتى لقد كان هذا الذي يسمعه من بين الأسباب التي تصده عن المدرسة على الرغم من كل المغريات.

وتشاء الظروف السيئة أن يصادف يوم ذهابه للمدرسة يوم حضور هذا "الألعبان" ، وقد كان ما يسمعه عنه من قبل كافيا لإثارة الرعب في قلبه الصغير.

يخوفونه بما لا تحتمله أعصابه من المبالغات ، فهذا الضابط لا يكتفي بضرب من لا يؤدي جميع الحركات الصعبة المعقدة ، بل إنه ليعلقه من رجليه في شجرة المدرسة و يتركه مدلى ساعة كاملة ، وانه ليرفعه من أذنيه أو شعر رأسه عن الأرض ثم يلقيه وهكذا مرات متواليات وانه ليفرك أذنه بحصاة صغيرة مع الضغط الشديد بإصبعه ..

إلى آخر وسائل التعذيب التي كان يستعمل بعضها حقيقة ، وبعضها مما اخترعه خيال الأطفال ،

ولما كان هو لا يعرف شيئا من التمرينات الأربعة العجيبة ، بل لا يعرف"صغادن" و "صولادن "و "مارش" فقد أيقن لا محالة أنه ذائق ذلك العذاب الذي لا يطاق.

و لما كان قد نشأ نشأة معينة ليس الضرب إحدى وسائل التربية فيها ، وكان إلى حد ما مترفا مدللا في منزله فإنه لم يكد يتصور أن يحتمل شيئا من ذلك العذاب.
وإذن فالأسلم و الأوفق أن يهرب من هذا الجحيم ..
فما إن دق الجرس بعد الحصة الثانية - وقبل أن تبدأ التمرينات الأربعة – حتى كان قد غادر المدرسة ، قاصدا المنزل هربا مما ينتظره إذا هو آثر البقاء.

ولكنه لم يكن يعرف الطريق إلى المنزل... فالمدرسة في طرف القرية وبيته في وسطها و هو طفل تجاوز السادسة بقليل ، ولم يكن يترك ليلعب في الشوارع و يجوب طرقاتها كالأطفال حفظا لملابسه النظيفة ، وحماية من التلوث بأخلاق أولاد القرية وألفاظها البذيئة..
فما كاد يغادر المدرسة بضع خطوات ، فيقابل ثنيه من ثنيات الطريق الكثيرة إلى منزله ، حتى عرف أنه تاه ، وأنه لا يعرف الطريق إلى المنزل بلا معين ، وكان الحل المعقول أن يعود إلى المدرسة فهي قريبة منه ، و أبوه سيحضر
كما أخبروه في فسحة الساعة العاشرة..
ولكن هذا كان فوق ما تطيق أعصابه الصغيرة ، وعند ذاك أدركه سلاح الأطفال .. فأخذ يبكي بصوت عال.

و لقيه أحد رجال الحي فسأله عن اسمه ، فلما علم انه ابن فلان ربت على ظهره وقاده إلى قرب المنزل ، وتركه بعد أن اطمأن إلى اهتدائه لداره.
وعندما صار في مأمن من الجحيم ، وأخذ يسترد أعصابه ، أدرك ما في فعلته من غضاضة – وكان على صغره يدرك هذه الغضاضة – فلم يستطع أن يواجه أهل البيت بفعلته لا خوفا فقد كان آمنا من الضرب ، ولكن حياء من الفعلة التي لم تكن تليق.

ففضل أن يزوي وجهه عنهم ، وان يعتزلهم في مخزن التبن ، و قد كان ملحقا بدارهم الكبيرة ، و لكن له بابًا مستقلا ، فأغلقه عليه وارتمى فوق التبن فنام..

وفوجئ والده – وقد ذهب يحمل الفطائر والحلوى إليه – بأنه قد هرب من المدرسة ، فعاد على المنزل ساخطا على ما لقيه من "كسوف"..عاد إلى المنزل ولم يكن احد قد علم بحضور الطفل الهارب.
فلما لم يجده ولم يجد خبرا عنه ، انقلب سخطه على قلق مصيره المجهول ، وامتلأ أهل البيت

كلهم قلقا.

فخرج والده يبحث عنه في طرقات القرية ، و بعث برسل آخرين يجوبون الشوارع الموصلة إلى المدرسة كلها ويسألون عنه من صادفوه من أهل القرية ، حتى لقي ذلك الرجل الذي صحبه إلى داره ، فأخبرهم خبره ، فاطمأنوا بعض الاطمئنان ، وفي أثناء هذا البحث في الخارج كان قلب الأم قد قادها إلى مكمنه ، فوجدته نائما فاحتضنته

ورفعته إلى كتفها في رحمة ظاهرة...

أما هو فقد أفاق ، ولكنه لم يستطع أن يرفع إليها نظره ، لقد دفن وجهه في صدرها ، وجعل يبكي وينشج وعبثا حاولت أن تقف منه سر هروبه من المدرسة هي أو أحد من أهله ... لقد أخجله أن يعترف لهم بخوفه من ضابط الجمباز. !

المدرسة المقدسة

كان قد مضى شهر على هروبه من المدرسة خوفا من ضابط الجمباز وكانت أمه في كرب دائم وهو مقعد مقيم لأنه لم ينخرط في سلك التلاميذ كما كانت ترجو فلقد كانت تذخر له في نفسها آمالا جساما تعلقها كلها على نجاحه في هذه المدرسة الأولية ليكون بداية لسفره إلى القاهرة عند خاله لإتمام تعليمه و عندئذ تتحقق هذه الآمال الجسام التي تنوطها بطفلها الصغير.
وكان أخوه الأكبر و هو ليس بشقيقه دائم التهكم عليه لهروبه من المدرسة و كان هو يحقد على أخيه هذا التهكم حتى لقد جرؤ على ما لم يجرؤ عليه قط من قبل ومن بعد و ما تنكره تقاليد الأسرة كل الأنكار..
جرؤ على أن يقذف أخاه هذا بغطاء القلة في وجهه ثم يلوذ بالفرار!..

أما والده فلم يوجه إليه كلمة واحدة وكان هذا أمرّ عليه من تهكم أخيه و أخيرا وجد نفسه منساقا إلى أن يعود إلى المدرسة ولكن بلا ضجة ولا مراسيم في هذه المرة و بلا تحضير أو تدبير وجد نفسه ذات صباح يصحو مبكرا فيرتدي ملابسه الرسمية و يتوجه إلى بيت خالته فيدعو ابنها و يخبره انه ذاهب معه إلى المدرسة في هذا اليوم...
و رحب به عريف المدرسة وفقيهها وكان يسمى الناظر و سأله عن سبب غيبته وهنا وجد السر قد ثقل عليه فأفضى به إليه أنه الخوف من ضابط الجمباز و لقد كان الناظر حكيما فجعل يطمئنه من هذه الناحية حتى شعر حقيقة بالطمأنينة وعلم انه في مأمن من خطر هذا الشيطان المريد حتى يتعلم الحركات و التمرينات وأنه صغير فلا بد أن تترك له فترة كبيرة للتعلم .. ثم وهذا هو الأهم أن ناظر المدرسة سيوصيه به خيرا عندما يجيء!

و ارتفع الكابوس عن صدره وحينما عاد في الظهر بعد قلق الجميع عليه واخبر أمه بما عمل شاع الفرح في كيانها كله و ضمته على صدرها في عطف جارف وانتظرت مقدم أبيه لتزف إليه هذا الخبر السعيد ومع أن البشاشة قد شاعت في نفس الوالد حينما علم ، إلا أنه تظاهر بعدم الاكتراث وأجابها مازحا :
دعينا يا ستي منك ومن ولدك.!!

كانت المدرسة مؤلفة من ثلاث حجرات و أمامها بطولها فناء المدرسة و به الباب الخارجي وكان بها خمس فرق من
التلاميذ موزعة كالآتي على الحجرات : الفرقة الرابعة–و بها كبار التلاميذ وفيهم من تجاوزت سنة العشرين – الفرقة الثالثة–وتلاميذها اصغر قليلا – في حجرة واحد ويعلمهم ناظر المدرسة

، والفرقتان الثانية و الأولى في حجرة واحدة ويعلمهم المعلم الآخر ، والفرقة التحضيرية وهي في حجرة مستقلة ، وهذه يشرف على ثقافتها وتربيتها .. إبراهيم .. فراش المدرسة الوحيد ! نعم ! فلقد كان ينهي عمله في كنس المدرسة ، وملء القلل التي يشرب منها التلاميذ من " الزيرين " الكبيرين " بالمزيرة " ويمسح السبورات و يزود الحجرات " بالطباشير " اللازم ، ثم ينقلب مربيا يشرف على الناشئة في دور التحيرا!

وكان هذا وحده يكفي لتنفير الطفل من البقاء في السنة التحضيرية هذه ، ويضاف إليه وجود ابن خالته في السنة الرابعة ... وأبدى رغبته هذه للناظر ، وبعد مفاوضة اشترك فيها العريف استقر الرأي على أن يوجد في فصل –أولى و ثانية– الذي يتولى العريف التدريس فيه ، على أن يذهب في بعض الأحيان إلى فصل السنة الرابعة للجلوس بجوار ابن خالته ولكن عندما يجيء المفتش إلى المدرسة فلا بد أن يجلس في السنة التحضيرية مدة وجوده وكان العريف والناظر كلاهما حفيين به ولم يكن هذا عجيبا فجيوبه تحمل لهما كل صباح كميات من السكر والشاي الذي يكلفون إبراهيم الفراش إعداد شراب لهما منه في الفسحة وبعد الغداء كما أن والده دائم الضيافة لهما في الحين بعد الحين.

ولهذا كله كانا يعنيان بالتدريس له على حدة داخل الفصل بكتابة الحروف الأبجدية ثم الكلمات ثم الجمل في لوحة الاردوازي وتركه لمحاكاتها وكان يتقدم يوما بعد يوم و هو يتلقى العلم في شبه درس خصوصي شأنه في ذلك شأن عدد قليل من التلاميذ الآخرين من أبناء الأثرياء في القرية الذين يجدون ما يجده من الرعاية و التدليل.

وفي نهاية العام كان مؤهلا لأن ينقل إلى السنة الأولى فيجلس في مكانه الطبيعي.
وكان قد ألف جو المدرسة، وبدأ يكون تلميذا حقيقيا.

* * *

في العام التالي خطت المدرسة خطوة أخرى فعين لها مدرس ثان وبذلك اعفي إبراهيم الفراش من مهمته الثقافية واستقل بعلمه الإداري و وزع الجدول توزيعا جديدا فصار المدرسان و الناظر يتداولون الفصول الثلاثة ذات الفرق الخمس .

ووقع تعديل آخر فوضعت الفرقة الثانية و الثالثة في حجرة وانفردت الفرقة الرابعة بحجرة وحدها فيها عدا التلاميذ " دولاب " الناظر و به الحكك والأقلام والكتب و الكراسات.

أما في العام الذي يليه وحينما كان الطفل قد نقل على السنة الثانية فقد وقع انقلاب ضخم ارتجت له القرية ارتجاجا عظيما : كان قد توافر لدى المجلس معلمون من الفقهاء فبدا له ان يستبدل احدهم بالشيخ القارئ صاحب الكتاب الذي
لم يكن يحمله هذه الشهادة ولا عرف شيئا من الحساب ولا المواد الثقافية الأخرى ! ، وعندما تمت هذه الخطوة كانت الإشاعات قد انطلقت في الرقية فهزتها هزا عظيما ... أن الحكومة تريد محو القران بعدم تحفيظه في مدارسها ...

وهل ادل على ذلك من فصلها للشيخ احمد الذي يقرئ القران لأبنائهم في المدرسة ، والذي اطمأنوا لوجوده بها فبعثوا بأولادهم إليها ! وسرت هذه الإشاعات سريان النار في الهشيم و غذّاها الشيخ بطبيعة الحال انتقاما من المدرسة وترويجا لكتابه الذي سيعود للتعليم
فيه...فأصبحت المدرسة و قد غادرها عدد عظيم من تلاميذها في إثر " سيدهم الشيخ احمد " انتفاعا ببركته وبركة كتابه وبركة كلام الله وفرارا بدينهم من مدرسة الكفر و الضلال التي تسرق الحكومة دينهم فيها وهم لا يشعرون !

ولكم يكن ليفوت " سيدنا " أن يمر بوالد الطفل ليبلغه الخبر العظيم وليحذره بقاء نجله بالمدرسة ثم ليؤكد أمله الوثيق في أنه سيذهب من الغد إلى الكُتاب فهو ابنه ولا بد أن يتولى تعليمه كما تولى تعليم أبيه.
ولقد كان أبوه أرشد من أن تؤثر فيه هذه الدعاية إذ كان من قراء الصحف مشتركا في صحيفة يومية وعضوا في لجنة الحزب الوطني بالقرية ولكن كان خجولا ومجاملا فلم يود أن يجرح شعور " سيدنا " – ابن سيده – و وعده بأن يكون الطفل منذ الصباح في الكتاب.

وثارت زوبعة في المنزل حول هذا الانقلاب ..فأما والدته فهي مصرة على بقائه في المدرسة لأنها مفتاح تلك الآمال الطوال العراض التي تعلقها على الطفل الصغير وأما والده فقد وعد و ما يجوز أن يرجع الرجال في وعودهم بحال !
ولم يكن بد من أن ينفذ رأي أبيه وان يتوجه منذ الصباح إلى الكتاب..

لا يذكر أن قلبه الصغير قد عرف من قبل مثل الهم الذي عرفه ذلك اليوم ولا أن صدره ضاق و حرج واكتأب كاليوم أيضا .. لقد استقبله سيدنا الشيخ احمد بالحفاوة و البشر و البشاشة ولقد أجلسه بجواره على الفروة التي يجلس هو عليها ، في حين جلس صبيان الكتاب على الحصيرة في وسطه أو على المصطبة الدائرة بجانب الجدران.

ولكن هذا كله لم يفتح نفسه لشيء لقد اعتاد أن يستقبل في الصباح ذلك البناء النظيف النبق ، ذا الحجرات المطلية بالجير و الفناء المفروش بالرمل وان يجلس على المقاعد المدرسية و أمامه قمطرة وفيه الكتب والأدوات و الكراسات و لوحة الاردوازي الأنيقة ... أما هنا في الكتاب فلا مقاعد ولا قماطر ولا حجرات ولا جرس ولا صفوف ولا كتب ولا أدوات ولا كراسات ...
إنما هو لوح من الصفيح يكتب فيه التلاميذ بحبر مصنوع من زهرة الغسيل أو من " هباب " المصابيح أو من مواد تشبهها ، وهم يحملون الدواة و القلم في أيديهم أينما ذهبوا ، فلما ذهبوا فإذا " سّمع " لهم سيدنا " الألواح " ووجدهم قد حفظوا أذن لهم بمسحها وكتابة آيات أخرى من القرآن فيها.
أما طريقة مسحها فهي طريقة قذرة إذ يبصق التلاميذ فيها ثم يدعكونها بأيديهم و يمسحونها بطرف ثيابهم لذلك تبدو ثيابهم ملوثة بالحبر.

ثم لقد هاله أن سيدنا حين يصحح هذه الألواح لهم بالمداد الأحمر و يلاحظ فيما كتبوا غلطا يبادر بلحس الكلمات المغلوطة بلسانه ومسحها بطرف كفه ليكتب بدلا منها الكلمات الصحيحة ثم إذا بدا لتلميذ أن يستأذن لقضاء حاجة خارج الكتاب فإنه لا يرفع إصبعه كما يرفع التلاميذ في المدرسة أصابعهم ، بل يروح يفرقع بإصبعه السبابة فوق أصابعه الأخرى وهو ينادي : سيدنا ، سيدنا.
فإذا انتبه إليه سيدنا جمع أصابعه وقال له : "دستور ! "
فإذا أذن له خرج وقد لا يعود أبداً بقية اليوم.
على أية حال لقد امتلأت نفسه اشمئزازا من كل ما حوله وأحس هناك بغربة مريرة ذليلة.
وحينما عاد إلى المنزل كان قد صمم على ألا يعود أبدا إلى هذا المكان القذر ، مهما أصابه من التهديد والتبكيت ، وأسرّ بهذه الرغبة الملحة إلى أمه ، فاغرورقت عيناها بالدموع .
وفي الصباح كان والده وكان سيدنا كذلك يعتقدان انه ذاهب إلى الكتاب ، ولكنه اخذ طريقه خفية إلى المدرسة مهرولا كأنما يخشى أحدا أن يتعقبه ، فوصل إليها مبكرا جدا ، فلم يجد هنالك أحدا ولا الفراش ... كان بابها لا يزال مغلقا ، فآثر أن يجلس أمامه وان يركن بظهره إليه ، كأنما يأوي إلى مكان حبيب وحصن حصين عصيب.

وتكاثر التلاميذ بعد قليل ، وسأله بعضهم لماذا غاب بالأمس ، فقد كان هذا هو اليوم الوحيد الذي غاب فيه منذ أن جاء إلى المدرسة، وراح يشرح لهم كيف ذهب إلى الكتاب ، وكيف وجده قذرا لا يطاق ، وكيف يختلف في كل شيء عن مدرستهم الجميلة وفجأة انقلب داعية إلى المدرسة ضد الكتاب ، وهو لا يدري ما الدعاية والترويج ، وحينما سأله الناظر عن سر غيبته الشاذة ، راح يقص عليه والدموع تنهمر من عينيه ظروف هذه المأساة ... وطمأنه الناظر على

مقامه بالمدرسة ، ووعده بأنه سيذهب اليوم إلى والده لإقناعه بالبقاء ، واستراح كل الراحة ، ووجد نفسه يتنفس في البيئة الطبيعية التي يألفها.

وحينما حان موعد الانصراف ذهب إلى الناظر ليذكره بوعده فأبلغه أنه قادم على أثره ...
وهكذا كان.
فقد حضر إلى الدار مع زميليه ، واقنعوا والده بأن ابنه خسارة في الكتاب ، وأنه تلميذ نبيه متفوق ، وأنهم ينتظرون له مستقبلا طيبا في المدرسة.
ونظر إليهم لأنهم ليسوا من أهل البلدة بل ضيوف ، فقد اضطر إلى قبول رجائهم ، واعتذر لسيدنا بهذا العذر حينما عاود المجيء ، فانصرف وهو يحوقل ويستعيذ من رسل الكفر والضلال

* * *

منذ ذلك اليوم عادت المدرسة في نفسه مكانا مقدسا كمحاريب الصلاة ، وارتفعت بما فيها ومن فيها في عينه درجات و آلى على نفسه أن يكون داعية المدرسة المكافح ضد الكتاب .
إن حجة الكتاب الكبرى أنه يُعنى بتحفيظ القرآن ، بينما المدرسة تهمله ، و لا تستطيع أن تخرج تلميذا واجدا يحفظه..
إذن فليوجه همه إلى حفظ القرآن ، حتى يهدم هذه الحجة الكبرى .. وانه ليرهق نفسه و صحته المرهقة ويسهر إلى منتصف الليل ليعيد في كل ليلة جميع ما سبق له حفظه من القران وذلك بجانب الدروس الأخرى .. فما يكتمل العام حتى يكون حفظ ثلث القران حفظا جيدا يباهى به من يتحداه ! ثم يؤلف جبهة من تلاميذ المدرسة ضد " أولاد الكتاتيب " جبهة للمفاخرة بكل شيء . وبحفظ القران أيضا .. وآية ذلك هي" النقاوة " ومعناها أن " ينقي - " أي ينتقي – بعض التلاميذ لبعض التلاميذ آيات و سور من القران للاختبار في حفظها وذلك على سبيل المباراة بين هؤلاء و هؤلاء وكثيرا ما فازت المدرسة فأدركته النشوة الجارفة بهذا الانتصار ..
كان من مفاخر فريق المدرسة أشياء و أشياء .. بناء مدرستهم الأنيق النظيف ، بجانب بناء الكتاب القديم القذر ، وفناؤها الفسيح ، والشجرتان الظليلتان به ، و زهرتهما الجميلة التي لا نظير لها في القرية كلها : زهرة " دقن الباشا " ذات الرائحة العطرة ، و " المزيرة " وهي صوان من الخشب المتشابك بداخله
"زيران " كبيران على حمالتين من الحديد ، و تحتها جردلان نظيفان لتلقي الماء المقطر الذي يشرب منه " الافنديات " و " الأفنديات " – جمع شيخ - ! وهم معلمو المدرسة و ناظرها – وكان التلاميذ و أهل البلد يلقبونهم بهذا اللقب تمييزا لهم عن مشايخ القرية و هم حفظة القران

– الأفنديات ، و ملابسهم النظيفة و مرتباتهم التي تصرف من مجلس المديرية لا من "خميس " الأولاد الذي يؤدونه لهم في كل يوم خميس ! ثم المقاعد و القماطر .. وبخاصة الأدوات التي تصرف لهم كل عام والكراسات الأربع والأقلام الأربعة كذلك من البوص الأحمر ، ينما أولاد الكتاب يكتبون في ألواح الصفيح بأقلام الغاب البيضاء..
ثم النشاف الذي يجفف الكراريس بينما يستخدم أبناء الكتاب التراب في تجفيف ألواحهم ، والريق في محوها مع طرف الملابس ، أو اللسان في بعض الأحيان!

وأشياء أخرى كثيرة هي موضع فخارهم ... ولكن شيئا منها لا يبلغ ما تبلغه اللافتة " الياطفة " التي تعلو باب المدرسة و هي الطابع الفريد للمدرسة الذي لا نظير له في القرية كلها و الذي نقل عن البندر نقلا!

أما قصة هذه اللافتة فترجع في الحقيقة إلى العام التالي حينما انتقل الطفل إلى السنة الثالثة فقد توافر للمجلس عدد من المتخرجين في مدارس المعلمين بنظامها الجديد – إذ ذاك – فعينت المدرسة اثنين منهم احدهما ناظر بدل الناظر القديم الذي نقل معلما في بلد أخرى والآخر مدرس فلم يبق بالمدرسة إلا عريف واحد نقل هو الآخر بعد شهر من السنة وبذلك ارتقت المدرسة درجة أخرى واستكملت جميع خصائصها النظامية و صفي التلاميذ الكبار أو بتعبير اصح الرجال ذوو الشوارب وألغيت الفرقة التحضيرية ، وقسمت المدرسة إلى أربع فرق بنظام معقول.

وبدا للناظر الجديد أن يدخل على المدرسة تجديدا عظيما فاقترح أن تعلق عليها لافتة باسمها على النحو المتبع في مدارس البندر وعرض على التلاميذ أن يساهموا في شراء هذه اللافتة بما يستطيعون بعد أن أعلن لهم أنها ستتكلف خمسة وعشرين قرشا وتحمس صاحبنا للمشروع فهذه اللافتة ستكون مفخرة جديدة يضمها إلى مفاخر المدرسة حينما يباهي بها تلاميذ الكتاب .. وحينما بدا بعض التلاميذ يحضر مليما أو مليمين وأبناء الأثرياء يحضرون نصف قرش وفي النادر القرش كان هو يبذل جهده في المنزل ليحضر خمسين مليما!
وحينما تمت كتابة اللافتة في البندر ، وعلقت على باب المدرسة كاد يطير فرحا!!

* * *

و في نهاية السنة الرابعة كان يجيد حفظ القران -- وكانت هذه هي معجزة المدرسة الأولى التي تخرس السنة الدعاة

الكذبة من أصحاب الكتاتيب وصبيانها .. ولكنه و قد أتم الدراسة بالمدرسة كان لا يزال طفلا كان في نحو العاشرة وكان له زملاء قد أتموا من قبل حفظ القران بالكتاب ، ثم دخلوا المدرسة فلما بلغوا السنة الرابعة كان سنهم قد تجاوزت الخامسة عشرة و هؤلاء ثلاثة تمكنوا في نهاية العام أن يتقدموا لمدرسة المعلمين الأولية في البندر فقبلوا..

كان هذا حدثا جديدا في القرية اهتزت له اهتزازا إذ سيصير هؤلاء بعد سنوات ثلاثة " افنديات " كأفنديات المدرسة الذين تخرجوا من تحت أيديهم ! ، و كان هو يتمنى لو يغمض عينه و يفتحها فيرى نفسه في مثل سنهم فتقبله مدرسة المعلمين ولكن أين هو من هذه الأحلام ؟
لقد كان يكّن للافنديات نوعا من الشعور يشبه العبادة ..
فهم أولاً جزء من المدرسة المقدسة ، وهم ثانيا أولئك الذين يعلمون مالا يعلم ويدركون ما لا يدرك ، ويقدرون على كل شيء ولهم حياة خاصة لا يدرك لها كنها كحياة الأطياف وانه ليذكر اليوم بعد مضي أكثر من خمسة وعشرين عاما ،وبعد تقلب الظروف و الأحوال انه بعث مرة إلى منزلهم الذي كانوا يسكنونه في البلدة والذي تبرع به احد ملاكها لسكانهم اعترافا بفضلهم وتكريما لهم.

يذكر أن أحدهم كان قد نسي ساعته فانتدبه وسلمه المفتاح ليأتي له بها – إذ كان معروفا بأمانته في المدرسة ويذكر انه دخل الدار متهيبا متوجسا كأنما يدخل محرابا مقدسا أو دارا مسحورة فانبهرت أنفاسه و هو يخطو وهو يصعد الدرج و هو يفتح باب الحجرة المقدسة وهو يتناول الساعة ثم يغلق الباب و يعود كأنه " الشاطر حسن " داخل الكنز المسحور !

كان يتمنى إذن أن يلتحق بالمدرسة التي التحق بها هؤلاء... ولكن السن كانت تحول بينه وبين ما يريد ولم يكن بد من أن يترك المدرسة ليخلي مكانه لقادم جديد .... ولكن كم كان شاقا على نفسه أن يغادر وطنه هذا الصغير وان يبعد عن رفاقه و لداته الذين يحبهم و يحبونه و كم كان عزيزا على المدرسين أن يفرطوا فيه و هو حجتهم الأولى على نجاح المدرسة في تحفيظ القران...
وما كان أسرع ما احتالوا لذلك فقيدوا اسمه في السنة الرابعة بعد مضي شهر من العام التالي على انه مستجد.

وهكذا عاد إلى المدرسة الحبيبة ليقضي بين جدرانها عاما آخر .. يضاف إلى الأعوام السعيدة الجميلة.

* * *

ومضى ربع قرن ، سافر في أثنائه إلى القاهرة ، و أتم دراسته العالية وشغل مناصب كثيرة ولكنه لا يعود اليوم إلى القرية حتى يتوجه إلى المدرسة المقدسة فإذا تجاوز العتبة أحس برهبة التلميذ و خشوع العبادة ..

ولو سئل أحلى أمانيه لأجاب:

أنه يتمنى أن يعود تلميذا في المدرسة المقدسة ينافح عنها الكتاب و صبيان الكتاب !

وإن عشرات الصور العجيبة و الحبيبة لتقفز إلى مخيلته ، وتتراقص في خاطره وكأنما يعيشها من جديد و هو يتخطى العتبة المقدسة. !

* * *

فهو يذكر تلك الفترة التي كانت المدرسة تستحيل فيها إلى شبة جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات وتبقى الجهة الرابعة وحدها في طريق الوصول .. كان يقع ذلك أيام فيضان النيل ، إذ كانت ارض قريته تغمر بهذا الفيضان شهرين في العام ، وتنكشف الأرض للزرع بقية العام ! وكانت المدرسة بحكم موقعها في طرف البلدة على حدود الحقل تحتاطها مياه الفيضان إلا مسلكا واحد طوال هذين الشهرين الجميلين.

كان جمالها في يوم السبت من كل أسبوع .. ذلك أن الافنديات وبعضهم من البندر وبعضهم من القرى المجاورة كانوا يبقون في البلد طوال الأسبوع ويذهبون إلى رؤية أهليهم يومي الخميس و الجمعة ، ثم يحضرون صباح السبت .. فأما في أيام السنة العادية فإنهم يستقلون الحمير في الموعد المناسب ، فيصلون قبل ميعاد دق الجرس في صباح السبت ، وأما في أيام الفيضان فهم يستقلون المراكب و القوارب الشراعية وهذه لا ضابط و لا ميعاد ، ولا تصل غالبا إلا بعد أن ترتفع الشمس وتناهز الساعة العاشرة بعد فوات وقت الدرسين الأولين وقد لا تصل حتى الظهر في بعض أيام السبت الجميلة!

ولقد كان التلاميذ يقفون على الشط أو يبعدون في شوارع القرية القريبة أو يقفزون و يتصايحون في فناء المدرسة يدخلون الحجرات ثم يخرجون منها في غير ما حرج و دون شعور بأي قيد وكان يحلو لهم هذا الدخول و الخروج واعتلاء المقاعد و القماطر و التلصص من النوافذ المطلة على مياه الفيضان..

وكانت الجرأة تبلغ ببعضهم أن يخلعوا ملابسهم و يلقوا بأنفسهم في الماء من النوافذ فيسبحوا ثم يعودوا فيتسلقوا النوافذ حيث يجدون ملابسهم أو حيث لا يجدونها إذا ينتهز بعض زملائهم

هذه الفرصة فيخفونها أو ينقلونها إلى مكان بعيد ، حيث يدور الطفل يبحث عنها و هو عريان في كل مكان في المدرسة حتى يهتدي إليها أخيرا!!

و تظل هذه الحالة العابثة المرحة حتى تقرب مركب أو قارب من عرض الفيضان و يخشى ان يكون فيها احد الافنديات (فقد كانوا يصلون متفرقين حسب المراكب التي تقوم من بلادهم المختلفة) و في لمحة عين يكون كل تلميذ على مقعده ، و أمامه مصحف أو كتاب يقرأ فيه ، و النظام مستتب و الأصوات خافتة ، إلا من هيمنة القراءة دليلا على شدة الاستغراق!

فأما إذا كان أحدهم في المركب فبها و نعمت وها هم اولاء جميع التلاميذ في نظام تام ! وأما إذا كانت فارغة فقد نفخ في الصور مرة أخرى وعادت الضجة بأعنف مما كانت وعاد القفز و الوثب إلى الماء من النوافذ و على الأرض في الفناء و يتكرر هذا في كل سبت طوال مدة الفيضان.

و ذلك كله على الرغم من جهود " سيدنا عبدالله.. "

و " سيدنا عبدالله " هذا هو خليفة إبراهيم الفراش ، وهو من أهل البلد ، وقد عين فراشاً في المدينة ، بعد أن كان عريفا في كتاب ، لأن المرتب الثابت وقدره تسعون قرشا في الشهر أضمن من نصيبه في " خميس " صبية الكتاب الذي قد لا يتجاوز خمسة قروش في كل أسبوع! ومع انه اشتغل فراشا فقد ظل يحتفظ بلقبه القديم " سيدنا عبدالله. "

* * *

ثم يذكر " المفتش" ولو أنها ذكرى مرعبة ، ولكنها الآن تبدو فكاهة لذيذة:
كان يزور المدرسة مفتشان شيخان : أحدهما من مجلس المديرية والآخر من وزارة المعارف ، ومع أن حضور واحد منهما كان ينشف ريق الأطفال دائما ويلقي الذعر في قلوبهم ، فوق هذا ما يربك المدرسين والمدرسة ، ويخلع عليها ظلا قاتما وجوا خانقا ، فإن مفتش الوزارة كان مصدر رعب أكبر من مفتش المجلس !

كان رجلا فارعا ، أسمر الأديم ، قاسي الملامح ،حاد النظرات ، يخيل إليك دائما أنه حاقد على شيء ما ، وأنه يصرّف أنيابه من الغيظ الكظيم.. ولما كان مفتش الوزارة ، لم يكن بد أن يخلع على نفسه وعلى زيارته أهمية غير أهمية مفتش المجلس .. ! لذلك كان يبدو رزينا اكثر من اللازم ، عنيفا قاسيا في حركاته وكلماته وإشاراته ، وكانت جبته وقفطانه المنسدلان على بدنه

الفارغ يزيدانه هيبة وهولا.

وكان يبدو على المدرسين فزع اكبر ، فينتقل منهم بالعدوى إلى التلاميذ .. حتى لتبدو ساعات وجوده بالمدرسة كأنها دهر طويل ، وكأن الزمن لايمر إلا ببطء شديد..

أما الحادث الفذ الذي لا ينساه ، فهو هذا الحادث!
كانت المدرسة جارية كعادتها في هينة وتؤدة ، الجو قائظ في نهاية العام والتلاميذ خاملون ، والمدرس قد ثقلت عليه جبته فتخفف منها وألقاها على مسند المقعد ، وثقلت عليه عمامته فأمسك بها من مقبض الزر في رفق كي لاتنكث ، وألقى بها على قمطر التلميذ الأول ، وجلس على كرسيه في تراخ ظاهر ، وباعد ما بين فخذيه ، فانفسخ القفطان ، وبدت منه " تكة " السراويل المتدلية في غير ما كلفة .. بينما الوقت يمر والدنيا هادئة ، والجميع في تهويمة لذيذة ، إذا بشبح طويل فارع يقفز من النافذة متدليا الى حجرة الدراسة فيصبح معهم في لحظة !
وريع التلاميذ ، وجمد الدم في عروقهم ، وشخصت أبصارهم إلى الشبح المتسلق ، وندت منهم صيحات مذعورة ،
واضطرب المدرس ، وقام يمسك عمامته بيد ، ويحاول ان يرتدي جبته باليد الأخرى فلا يستطيع .. والشيخ تنفرج ثناياه عن إبتسامة صفراء كالحة ، ولسانه ينطق في تهكم مر وهو يهز رأسه هزا دائما : ماشاء الله ، ماشاء الله!

ماذا ؟

إنه المفتش – مفتش الوزارة– قد أوقف حماره الذي يركبه عادة للحضور من البندر إلى القرية ، أوقفه تحت النافذة تماما ، وأنصت ، ثم قفز على ظهره واقفا فأصبح قريبا من النافذة ثم تسلقها ليضبط كل شيء.
وكانت هذة طريقة مبتكرة في التفتيش. !!

* * *

وصورة أخرى لايملك ان ينساها كذلك:
كان النظار والمدرسون يتعاقبون على المدرسة والتلاميذ بسبب التنقلات السنوية المعتادة.
وحينما كان في السنة الرابعة عين ناظرا شيخ مسن ، تلقى تعليمه في الأزهر ، ثم التحق بمجلس المديرية.
كان الرجل أشيب ، صلع رأسه سوى دائرة حلقية ، وكانت العمامة تستر هذة الصلعة ، فإذا

رفعها تبدت من تحتها كاملة ، وكانت هذة الصلعة مثار ضحك التلاميذ الشياطين وسخريتهم.

وفي يوم تمت مؤامرة بين عفاريت التلاميذ ، وبينما الشيخ جالس يصحح الكراسات والتلاميذ من حوله مجتمعون ، وهو مستغرق في العمل .. شاهد التلاميذ عمامة ترتفع شيئا فشيئا عن رأس الشيخ حتى تتوسط الحجرة ، ثم تسقط فجأة عندما يقف الشيخ غاضبا مزمجرا ، بينما ينفجر الضحك من حلوق التلاميذ وعيونهم ، ويترقرق في عيونهم الدمع لشدة مغالبة الضحك المكتوم.

كانت لعبة الشط والبكرة قد عملت عملها في عمامة الشيخ المسكين ، فلما تنبه ترك التلميذ الخيط فسقطت سقطة مفاجئة.!

كان هذا الشيخ مغرما بالإعراب ، والتلاميذ صغار في المدرسة الأولية ، لكن ماذا يعنيه هو ... انه يستدعي تلميذا منهم ليكتب على السبورة ، فقد كان خط الشيخ لا يُقرأ ، ويملي عليه أبيات كاملة من الشعر ، ثم يكلف التلاميذ ان يعربوها ، فإذا لم يعرفوا ففيه هو البركة ، وانه ليحفظهم الإعراب تحفيظاً.

ولاعليه الا يفهم التلاميذ شيئا من الاصطلاحات الإعرابية العميقة ، ولم يكن نادرا ان يلوك تلميذ صغير مثل هذة الكلمات:
"وطني : مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على ماقبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة " ، أو " إذا : ظرف لمايستقبل من الزمانخافض لشرطه منصوب بجوابه .... " الخ.
وعلى كل حال فقد ازدحمت حافظة التلاميذ بشيء من هذا كثير ؟.

وتمر الأيام ويحضر العلماء وطلاب الأزهر من القاهرة إلى القرية في العطلة ، ويتطوع عالم منهم بإلقاء درس في التفسير على الجمهور في أحد مساجد القرية ، وهذا الدرس لا يتجاوز ان يجلس الشيخ ويلتف حوله القرويون الأميون ، فيسحب من صدره "ملزمة" من تفسير الزمخشري ، ويروح يتلوه عليهم ، وهو يصفق بيديه بين آن وآخر ويقول : مفهوم ؟ ، فيجيب بعضهم : مفهوم .. ، ويمضي يصب عليهم مافي الزمخشري من بلاغة ونحو وصرف وتأويلات لايدرون منها شيئا.

وكان الطفل يحضر هذة الدروس كي يصير رجلا ! ، وفي ليلة كان الشيخ يقرأ تفسير سورة الكهف ومر بقوله تعالى:

}ذلك ماكنا نبغِ فارتدا على آثارهما قصصا { ، ولما كان الطفل حريصا على محصوله من النحو فقد لفت نظره ان كلمة

"نبغِ " محذوف حرف العلة بلا مبرر ظاهر ، فرفع إصبعه كما يصنع في المدرسة وقال :

ياسيدنا الشيخ لماذا حذفت الياء في "تبغِ" بدون جازم ؟ ، ورفع الشيخ رأسه بلا إهتمام ، ثم مضى يقول وكأنه يستمر في التلاوة:

"ياسيدي حذفت الياء إعتباطا للتسهيل"

ومضى لايلوي على شيء ولايلتفت الى الطفل الصغير ، وسمع الطفل " إعتباطا للتسهيل " فلم يجد ان هذا في طوقه ، انه يعرف إعراب إذا وإعراب المنادى ، وحرف الجزم وحروف العلة ، أما " إعتباطا للتسهيل "هذة فشيء لايصل إلى مستواه.

انه علم الأزهر ، وهو هنا في القرية ، وفوق كل ذي علم عليم ! ، ومضت سنون كثيرة قبل ان يعرف الطفل : " إعتباطا " وقبل ان يعرف :" للتسهيل. ! "

* * *

ثم يذكر أشياء أخرى أهم في نظره وأعمق في نفسه ... كانت المدرسة قد فتحت أبوابها لبنات القرية أخيرا على ان يتعلمن مع الصبيان طوال اليوم فلم يكن نظام نصف اليوم للبنين ونصفه الآخر للبنات وقد اخترع في القرى ، وقبل بعض الأباء ان يرسلوا بناتهم الى المدرسة – ولاسيما وهن طفلات صغيرات لايتجاوزن العاشرة – وكان عددهن في المدرسة كلها سبع بنات ... ومع انهن لايمتزن بشيء عن بقية بنات القرية ، فإن وجودهن في المدرسة قد أوجد فيها جوا غريبا ، وأشاع فيها عطرا خاصا ... ذلك الجو هو مزيج من الحساسية الحادة ، والرغبة المكبوتة في محادثة هذا الجنس الغريب في المدرسة ومن الحياء القروي الساذج ، والحذر من تجاوز الحد فيقع المتجاوز تحت طائلة العقاب المدرسي والمنزلي على السواء.

ولكن هذا كله لم يمنع بعض التلاميذ وخاصة الكبار منهم ، ان يأخذوا الى معاكسة البنات عند انصرافهن من المدرسة ، بالكلمات التي قد يكون بعضها نابيا ، وبالحركات والأصوات العابثة .. وكان الغرض كله هو لفت النظر بطبيعة الحال !

أما هو فإن حياءه الشديد وتقاليده العائلية قد أمسكت به بعيدا عن هذة الحركات ، ولكن هذا لم يكن معناه ان اقل رغبة من الآخرين في لفت النظر إليه .. انما كانت وسيلته إلى ذلك مما يتفق مع نشأته ، فأخذ جانب المدافع عن كرامة البنات حيثما وجه إليهن اعتداء ! ، ومع هذا فقد راعه ان يكسب الموقعة بلا نضال .. فقد كان في البيت ذات يوم ، فما راعه إلا البنات السبع يطرقن الباب ويسألن عن شقيقته الصغيرة للعب معها داخل الدار ، لم يكن هذا كله بلا تمهيد ..

فقد كان من بين البنات أخت لزوجة أحد أعمامه ، ومن بينهن ابنة عمها أيضاً كذلك ، وكان لهذة في نفسه شيئا خاصا !
ولم يكن الحديث ممنوعا بينه وبين الأولى بلا كلفة ، أما الأخرى فمع ان صلة المصاهرة البعيدة كانت تسمح له بالحديث ، إلا انه كان يرهبه ويتوقاه في قداسية صوفية وفي حياءعميق.

ولكنه على كل حال لم يدعهن الى المنزل ، وماكان يستطيع ان يوجه هذة الدعوة ... فلما حضرن جميعا على هذا النحو تقودهن الطفلة الأولى وتتمنع الأخرى في خفر محبب .. أحس في نفسه نشوة لم يشعر بمثلها قط ، لقد أدرك انه هو المقصود بهذة الزيارة لا أخته الصغيرة! ، وأحس ان هذة الأخرى تخصه بما يخصها به ، وان لم يتبادلا الكلام.

وتكررت هذة الزيارات ، ولم يزد الأمر فيها على مقابلات خاطفة ، ولكنها تركت في نفسه أثرا لايمحى.
كانت هذة الثانية خمرية اللون ، ذات طابع خاص غير مكرر في الوجوه ... ولم تكن حسب مقاييس القرية جميلة ، فليست بيضاء البشرة ، وليس أنفها دقيقا بالقدر المطلوب ، وليس فمها كذلك " خاتم سليمان ... "
ولكنها هي وحدها من بين بنات القرية جميعا كانت تبدو في نظره جميلة ، وكان سر جمالها عنده أنها ذات طابع خاص ! ، وان لم يكن يدرك في ذلك الحين معنى الطابع الخاص.

وعندما غادر القرية الى القاهرة ظل هذا الوجه يخايل له ويرسم نماذج الجمال في نظره ، حتى عاد بعد ثلاثة أعوام
وقد تغيرت حياته وتغيرت ثقافته وتغير عالمه ..
إلا ان السؤال الأول الذي توجه به في حذر والتواء ، كان هو السؤال عن مصير تلك الطفلة التي فتنته أول مرة.

وعلم انها تزوجت ، وانها تزوجت في جهة نائية عن القرية ، ورأى نفسه في حاجة لأن ينسحب من الجمع ، ورأى أن عينيه تتغرغران بالدموع!!!

]بعثة طبية[

كان الساعة تقارب العاشرة صباحا .. كانوا قد تلقوا الدرسين الأول و الثاني في مدرسة القرية ، ثم انطلقوا .. انطلقوا من الفصول كالعصافير الحبيسة حينما تنطلق من القفص بعد حسب طويل ، انطلقوا يقفزون و يركضون ، و يزعقون و يتصايحون لغير ما قصد ولا غاية إلا تأكيد شعورهم بأنهم طلقاء بعد الحسب الطويل.!

ثم لكي يفرغوا لنقل ما تحمله جيبوهم من بعض الأطعمة إلى بطونهم ، فلقد حملوا نحو ساعتين و لكن " النظام " في الفصل لم يكن ليسمح لهم بعملية تفريغ الجيوب ! ثم لكي لينصرف أبناء الأثرياء منهم إلى " عشة عم خليل " بائع القصب و البلح ، فيشتروا منه بمليم ! ، و لم تكن هذه كل قيمة " الفسحة " فلقد كان لهؤلاء الأطفال مآرب أخرى في تلك الفسحة القصيرة – ربع ساعة – لقد كانت المدرسة في طرف القرية على حدود الحقول الواسعة .

و اذا كانت وظيفة الحقل ان ينبت للناس و للمدرسة الحب و الأب ، فلقد كانت له وظيفة أخرى عند تلاميذ المدرسة ، وعند غيرهم من سكان القرية ... إنه يقوم لهم بوظيفة المراحيض العمومية . !

انطلق التلاميذ اذا في كل مكان يفرغون ما تحمله جيوبهم في بطونهم ، وما تحمله بطونهم في الحقول القريبة ... و

لكنهم فوجئوابجرس المدرسة يدق دقا عنيفا متواصلا قبل الميعاد المقرر للحصة الثالثة.

ومع أنهم لم يكونوا يحملون ساعات بطبيعة الحال ، فإنهم لم يكونوا ليخطئوا في معرفة الوقت بالضبط ، فإن احساسهم به لا يخطئ إلا في النادر القليل.!

وانتظموا صفوفا بعد قليل ، و لم يسمعوا تلك النداءات المعهودة التي يؤدون على أساسها بعض الحركات الرياضية الساذجة:

"صغادون " – أي إلى اليمين – " صولادون " أي إلى اليسار .. و " مارش " أي سر إلى الفصول .

لم يسمعوا شيئا من هذا ، و لكنهم سمعوا ناظر المدرسة يلقي عليهم خبرا غريبا عجيبا لم يسمعوا به قبل الآن...

إنهم الآن ذاهبون إلى دوار العمدة و سيسيرون في الطريق بنظام ، وكان هذا يقتضيهم أن يقطعوا شوارع القرية كلها تقريبا فدوار العمدة في أقصى الطرف الآخر من القرية ، و الناظر يحذرهم من الإخلال بالنظام في أثناء السير ، والإلتفات

إلى اليسار أو إلى اليمين ، و بخاصة عند مرورهم " بسويقة القرية " حيث يعرض القصب و البلح و التفاح البلدي الفج.

يذهبون إلى دوار العمدة ، و لماذا ؟ ، و هم لم يدخلوا هذا الدوار قط ، و ان سمعوا عن أبائهم و أهليهم أنهم يذهبون

في بعض الأحيان ، عندما يستدعيهم أحد الخفراء لأداء المتأخر من الأموال الأميرية ، أو أموال

الخفراء ، أو لأداء
شهادة ، أو للشكوى من بعض الفلاحين...
أما هم ... هم تلاميذ المدرسة ، فما لهم و كل هذه الأشياء ؟ .

و كان هو جريء بعض الشيء على ناظر المدرسة و مدرسيها ، كان متفوقا في دروسه ، وكان قبل كل هذا ابن رجل مضيافمتنور بعض الشيء ، فهو كثير الإختلاط " بالأفنديات " كثير الضيافة لهم ، و لهذا قيمته الكبرى.
أقول كان جريئا على " الأفنديات " فاستطاع أن يسأل : ولماذا نذهب إلى دوار العمدى ؟ ، سأل وليته لم يسأل !، لقد كان الجواب كارثة عظما لم تخطر له و لا لزملائه على البال...
إن " الحكيم " هناك – أي الطبيب – و هو يطلبهم جميعا !
الحكيم ؟ ، يا للداهية ! ، اليوم دنت آخرتهم ولا شك ، فعهدهم بالحكيم هذا إلا يزور القرية إلا في يوم أغبر أكدر يوم يقع في البلد قتيل،ثم تحضر النيابة و يحضر معها الحكيم لتشريح الجثة .

و النيابة و الحكيم هذان هما الشيئان الهائلان المخيفان في القرية كلها ، أما في أذهان الأطفال فهما " هيولي " لا يتصورون لهما شكلاو لا حجما ، فخيالهم الصغير يستطيع أن ينطلق في تصورهما كيف شاء ، و لكنه لن يميزهما بحدود من ما يميز الأشخاص و الأشياء...
نعم كان هناك أشخاص غيرالنيابة و الحكيم ، مثل " الدورية " و هم بعض جنود البوليس اللذين يزورون القرية ليلا في بعض السنوات لإمتحان يقظة الخفراء ، بقيامهم بواجبهم ، و للقبض على كل من يجدونه يتجول في شوارع القرية ، أو مداخلها بعد منتصف الليل...
و مثل المعاون والملاحظ ثم المأمور ، و هؤلاء لا يزورون القرية غالبا إلا مرافقين للنيابة و الحكيم ... و لكن هؤلاء جميعا دون النيابة و الحكيم في خيال القرية كلها و خيال الأطفال بوجه خاص.

ثم ها هو ذا الحكيم يطلبهم ، يطلبهم هم بالذات ، فما ذا يكون الأمر ؟ ، إنهم لا يعرفون لماذا يطلبهم مطلقا ، ولكنهم واثقون في قرارة نفوسهم أنه لن يكون خيرا و أنهم لن يخرجوا من " الدوار " إذا خرجوا ، و هم سالمون مثلما دخلوا بحال من الأحوال.

و ما وظيفة الحكيم ؟
أليست وظيفته أن يشرح جثث الموتى ، و أن يبقر بطون المصابين ، أو يقطع أيديهم و أرجلهم بمجرد الإيذاء ، أو لكي يفحصها و يلتذ بفحصها ، أو أن يسقي بعض المرضى " الفنجان " أي السم ليمتوا ، حتى لا يتعب في علاجهم ، أو تلبية لرغبة العمدة الذي يرشوه للتخلص من

خصومه اللذين يصابون في الحوادث !

فما هم و هذا الحكيم ؟

انهم ليسوا قتلى يشرحهم ، و ليسوا مصابين بقطع أوصالهم ، أو يسقيهم الفنجان ، و لكن أو يستدعيهم إلا لأمر

ما ؟؟....

أخف شيئ يصنعه بهم ، هو التجريح ، و هو الإصطلاح الذي يطلقونه على عملية التطعيم .

تلك العملية المرعبة التي يندب لها بعض معاوني الصحة ، وبعض الممرضين في الحين بعد الحين ، فتروع القرية ترويعا..

وما ان يعلن ان في البلد " الحكيم الصغير" (تمييزا له من " الحكيم الكبير" الذي يطلبهم الآن ، والذي يرافق النيابة دائما ولايحضر منفردا) ما ان يعلن هذا في القرية حتى ترتج وترتجف ، فتخرج الأمهات إلى الشوارع مولولات مذعورات ،

يلتقطن اطفالهن من كل مكان في ذعر وعجلة، ثم يغلقن على أنفسهن الأبواب ، ويصعدن إلى السطوح استعدادا للقفز عليها من بيت الى بيت ، فكثيرا مايدق هؤلاء الشياطين الأبواب ، ويكسرونها بمساعدة الخفراء ، ويهجمون على من فيها " للتجريح. "

فأما من تستطيع القفز إلى البيوت المجاورة ، فلن تقصر في سلوك طريق النجاة ، وأما من لاتستطيع ، فإنها تختبيء في صومعة الغلال ، أو في خم الدجاج حيث لايخطر على قلب " الحكيم" انها هناك!

هذا هو الحكيم الذي يعرفونه .. فما بالهم بالحكيم الكبير الذي لايحضر إلا مع النيابة ، والذي لايقع أحد في يده ، ثم ينجو إلا بمعجزة من معجزات القدر ، أو ببركة " تميمة" لولي من كبار الأولياء.!

وارتجفت مفاصلهم جميعا وهو يسمعون الخبر الفاجع ، واصفرت وجوههم ، وعلا صوت بعضهم بالنحيب والعويل ، وعبثا حاول " الأفنديات " ان يهدئوا من روعهم ، وان يبعثوا بالطمأنينة إلى نفوسهم ، بانهم سيرافقونهم ، وانهم لن يتركوهم وحدهم.

يرافقونهم ! ، وماذا يعني ؟ .. انهم ذاهبون إلى الحكيم .. فما غناء الأفنديات وغير الأفنديات – وذلك مع احترامهم الكبير لهم واعتقادهم انهم من طينة أخرى غير طينة القرويين – إلا ان الأمر أمر الحكيم ، لا أمر مسألة بشرية ، مما يجدي فيه البشريون.

* * *

ولما لم يكن من القدر بد ، وقد قيل لهم : انه لافائدة من محاولة الهرب ، فانهم سيقادون صفوفا في حراسة خفراء
القرية ، بإشراف الأفنديات ... ثم ان اسماءهم راحت للحكيم من دفاتر المدرسة ، فإذا هرب منهم أحد فسيقبض عليه، حيث يتعرض للعقاب!
لامفر إذن من المقدور ! وليكن مايكون!

ولكن الا يسمح لهم بإخبار أهليهم ورؤية بيوتهم وعائلاتهم قبل أن يساقوا إلى هذا المصير المجهول ؟
وقيل لهم أن هذا أيضا ممنوع .. فساروا صاغرين.

ووصلوا إلى الدوار ، ولايعلم إلا الله كيف وصلوا ، وقفوا صفا طويلا ، أوله في داخل الدوار – أي في منطقة الخطر – وآخره في الشارع أمامه ... وعن اليمين والشمال وقف أحد الأفنديات في أول الصف وأحدهم في آخره ، أما الناظر فقد سبقهم إلى الحكيم ليطمئنهم قليلا ، ويظهر أمامهم بمظهر الشجاعة المطلوب ! ، وكان ترتيب الصف حسب الطول ، فتقدم كبار التلاميذ وتبعهم الصغار أو القصار ، وفي هذة اللحظة فقط أصبح القصر نعمة كبرى من نعم الله!

فأما الذين تقدموا فلايعلم عنهم أحد شيئا إلا الله ، وأما المتخلفون فهم في تطلع مستمر وقلق دائم ، ينتظرون ماذا سيفعل بأول الداخلين ، ليعرفوا نوع المصير الذي ينتظرهم بعد حين!
وكانت مفاجأة حينما بدأ بعض الكبار يخرجون ، بينما بقية الصغار لايزالون في الصف الطويل ...
وانبعثت الصيحات والأسئلة التي لم يستطع كبحها الخفراء ولا الأفنديات:
-دخلتم للحكيم ؟
-نعم دخلنا!
-وماذا صنع بكم ؟
-لا شيء ! ، غزّنا في إصبعنا بالدبوس وشفط الدم!
الدم ! و لكن رؤيتهم لهم أحياء أصحاء مطمئنة على كل حال!
-وماذا هذا في أيديكم ؟
-حق من الصفيح نأتي فيه بعينة براز و زجاجة صغيرة نأتي فيها بعينة بول!
-عينة براز و عينة بول ؟ ولماذا ؟

-لا ندري ! هكذا طلب من الحكيم!

-الحكيم نفسه طلب منكم هذا ؟

-لا ... الحكيم الكبير غزّنا . والحكماء الصغيرون سلمونا الحق و الزجاجة وطلبوا منا العينة للحكيم!

و توارى الفزع قليلا ليحل محلة التساؤل المصحوب بالدهشة و الإستغراب لهذا الطلب الغريب ! ، ان أحدا لم يطلب اليهم مثل هذا الطلب من قبل .

وماذا يصنع الحكيم بهذة العينات العجيبة ؟ انهم ان فهموا غزهم بالدبوس و شفط الدم ، فانهم لا يفهمون طلب العينات.

إن الغز و الدم لازمتان طبيعيتان للحكيم .. ولكن هذا ؟ من يدري ؟ انه الحكيم!

وعلى سهولة الطلب ورخصه ، فانه بدا صعبا عزيزا في كثير من الحالات..

لقد طلب اليهم جميعا ان ينطلقوا إلى دورات المياه بمساجد القرية ، وان يعودوا بعد نصف ساعة ومعهم المطلوب ..

وليس كل تلميذ بمستعد لتلبية هذا الطلب في مثل هذا الوقت ، ولا سيما ان الفسحة المدرسية كانت قد أفرغت ما في البطون .. لو كان هذا قبل الفسحة لكان كل شيء حاضرا – وبخاصة احدى العينتين التي لا تأتي هكذا عند اللزوم!

فأما الذين كان في أمعائهم بقية فقد انطلقوا مطمئنين ، وأما الذين أحسوا ان أمعاءهم لا تستجيب لهم ، او حاولوا ولم يفلحوا ، فقد علا وجههم الاصفرار ، وارتفعت دقات قلوبهم من الخوف ، وركبتهم الحيرة التي تركب المذعورين!

ماذا يصنعون ؟ وكيف يعودون الى الدوار ؟ ، أو كيف يغيبون عن الموعد المرسوم ؟ ، ان اقل ما يتصورونه ان هم عادوا فارغين ان يبقر الحكيم بطونهم ليتناول منها العينة المطلوبة ، أو ان يدخل في أجسامهم قنوات طويلة لسحب هذه العينة .

و في الأولى الموت أو خطر الموت ، وفي الثانية العار أمام اخوانهم وعند القرويين!

ومن ذا الذي يعصمهم من هذا المصير ، وهم بين يدي الحكيم ؟ ان أهليهم على شدة بأسهم وقوة أجسادهم لا حول لهم ولا طول امام أخطر رجل في الحكومة .. صنو النيابة .. وكفى!

وهنا تتفق الحيلة ، وتبدو قيمة التعاون!

ان التلاميذ لأخوة ، فمتى تظهر قيمة هذه الأخوة ان لم تظهر الآن ؟

لقد انطلق المحرجون يرجون اخوانهم ان يمدوهم بعونهم ، وان يتولوا عنهم ملء هذه الأحقاق الصغيرة !

ملأها، فلقد كثر التساؤل بينهم : أو يكفي نصف الحق أم لا بد من ملئه ؟ ...

وكانت أغلبية الآراء تشير بأنه لا بد من امتلاله إلى نهايته ، فاصبح هذا هو المقرر في اذهان الجميع!

وهنا تظهر الطبائع على حقيقتها ، فالشدائد هي أفضل محك لها ! فأما ذوو الاصل و الطبع النبيل من التلاميذ فقد تقدموا لمعاونة زملائهم بلا تردد . وأما قليلوا الأصل و ذوو الطبائع اللئيمة فبعضهم شفاء لحزازات قديمة وبعضهم لؤما وانتهازا للفرصة!

ولكن هذا التعاون لم يسد الحاجة الا لحد معين ، وبقي عدد كبير من الأخوان الذين لا يجدون ما ينفقون .. !

وهنا تفتقت عبقرية أحدهم عن حيلة بارعة:

ان في مراحيض المساجد متسعا للجميع!

أما كيف كان ذلك ؟ فلا بد من بيان عن هذه المراحيض.

كان في القرية حوالي عشرة مساجد مبنية كلها على الطراز العتيق . وكانت دورات المياه بها عجيبة فهمي مؤلفة من " مغطس " هو حوض مبني من الطوب و مطلي بالسمنت من الداخل و الخارج ، يملؤه عامل خاص يمتح بالدلو من بئر المسجد و يصب فيه حتى يمتلئ .

وفي الحائط الخارجي للمغطس ركبت صنابير تصل من البناء مباشرة إلى الماء بداخله .

ومنها يتوضأ المصلون .. ولكن المغطس لا يستخدم فقط للوضوء .. انما هو الحمام المختار لعدد كبير من الناس الذين يعوزهم الماء في بيوتهم للغسل حين يحتاجون ، فيذهبون اليه في جنح الظلام قبيل الفجر حيث يتسورون حائطه ، ويرفعون غطائه الخشبي ، ثم يغطسون ، فينقون أجسامهم من الأوضار المادية و المعنوية ، ويدعونها عناك للمتوضئين!

و يلحق بدورة المياه المراحيض ، وبناؤها عجيب ، فهي تقع في صف طويل ، يفصل بين كل اثنين منها حائط .

ولكنها من الداخل متصلة بقناة مكشوفة يجري فيها الماء للجميع من منفذ في الحوائط الفاصلة بسعة القناة ، وتملأ هذه القناة بالماء من البئر كما يملأ المغطس ، ومن هذا الماء " الجاري " المتصل يتناول المصلون وغير المصلين للاستنجاء بأيديهم ، وهم داخل المراحيض ، والماء يجري و يتصل بالجميع!

أما بناء المراحيض ذاتها فأعجب . فالمرحاض يتكون من " كتفين " يجلس فوقهما من يريد ،

وبينهما فجوة واسعة تضطر الجالس الى ان يباعد ما بين رجليه كي لا يسقط في الفتحة الكبيرة ... في هذه الفتحة يتساقط ما يتساقط فيتراكم قريبا من الجالس ، لأن خزانات المساجد محدودة .والعدد الذي يتردد عليها ضخم جدا – اذ ليس في المنازل مراحيض إلا نادرا – وجميع الرجال و الأولاد و الكبار يلجأون إلى المساجد و الحقول ، أما النساء و الأطفال ففي سطوح المنازل تتسع للجميع!

وتبقى هذه الحالة طوال السنة ، و الرائحة التي لا تطاق تنبعث من هذه المراحيض المكشوفة ، و المواد النازلة على مرأى من الجالس لقضاء الحاجة ، والبعوض يتبادل مواقفه تارة على هذه المواد المكشوفة ، وتارة على وجوه
الجالسين ، فإذا خلت منهم المراحيض أخذ طريقه الى المصلين والى البيوت المجاورة جيئة و ذهابا حيثما يريد!

وفي موعد خاص يستقدم " السرباتية " أي الذين يكسحون المجارير يستقدمون من المدينة القريبة بمقاولة خاصة لنزح خزانات مسجد أو عدة مساجد .. ولهذا النزح طريقة عجيبة .. ان العربات الخاصة لم تكن تستخدم هناك على النحو المتبع في بعض المدن الخالية من المجاري . وما الداعي لهذه العربات ؟ وهناك طريقة طبيعية مقتبسة من البيئة الزراعية ؟ إلا تستخدم القنوات في الحقول لنقل الماء من مكان إلى مكان ؟ فلماذا لا تستخدم كذلك في نقل هذه المواد من المجارير إلى الحقول ؟ إلا أنها لتستخدم ! فما هو إلا ان تحفر قناة مكشوفة من المسجد الذي يراد كسح خزاناته إلى الحقول خارج القرية .

وتمر هذه القناة بالبيوت و الحوانيت في وسط الشارع ، ثم يربط جردل بحبل و يعلق هذا ببكرة ، و يقف عاملان يتناوبان فوق الخزان ، يملئون هذا الجردل من الخزان و يصبونه في اصل القناة . وبعد هنيهة يجري التيار حاملا كل شيء إلى الحقول المحفوظة بهذا السماد الطبيعي الثمين!

هذا وقد يتفق ان تكون عدة مساجد متفرقة من القرية في حاجة الى التطهير ، فتوفيرا للقنوات المتعددة ، توصل قناة بقناة ، وإذا بالقرية كلها شبكة واحد من القنوات المتصلة .. ولا على سكان البيوت و الحوانيت ان يتمتعوا بالنظر الفذ و الرائحة القوية اسبوعا أو أسبوعين ... فتلك بيوت الله ، و لايجوز ان يتأذى أحد من فضلات المصلين ! (١)

---

(1)تغيرت هذه الطريقة الآن وأصبحت العربات المقفلة تستخدم كما في بعض المدن

* * *

قرب المواد المطلوبة في فتحات هذه المراحيض العجيبة ، هو الذي فتق الحيلة البارعة التي نبتت في ذهن هذا التلميذ العبقري ! وما اطلع بها على اخوانه الملهوفين ، حتى طلع عليهم الفرج بعد الضيق ..

وماهي إلا دقائق حتى كانت الأحقاق كلها مليئة ، فتسلمها الحكماء في اطمئنان عميق ...

وسمح للتلاميذ بإجازة بقية اليوم ، فعادوا إلى منازلهم غير مصدقين!

* * *

وعلم فيما بعد أنها كانت بعثة طبية للقيام بإحصاء طبي عن حالات الانيميا و البلهارسيا والانكلستوما و الاسكارس . ولكنه لم يعلم كيف كانت النتائج الني دونتها البعثة في احصاءاتها الرسمية الوثيقة. !!!

سيد الحكيم

لم يكن قد ذهب إلى المدرسة الأولية بعد .. كانت سنه دون السادسة. !

حينما أصبح الصباح ، وارتفعت الشمس قليلا ، وتجاوز الوقت الضحى ، فإذا جميع من في البيت مرضى ، يقيئون

ويتوجعون ، بينما كانوا جميعا بالأمس أصحاء تملأ أجسامهم العافية ، ماعداه إذ كان متوعكا منذ أيام.

كانوا قد تناولوا طعام العشاء المؤلف من اللحم ومن نوعين من الخضر ومن الرز ومن البطيخ .. أما السر في تعدد الألوان

هكذا ، فقد كان هو " الختمة! "

والختمة كانت عادة موسمية في منزلهم ، تكرر أربع مرات أو خمسا في العام .. وفحواها ان يدعى بعض " الخطباء "أي قراء القرآن في المنزل لتلاوته ، تبركا وتيمنا ورحمة على أرواح

الأموات في مواسم معينة : في يوم عاشوراء ، وفي
العيدين الصغير والكبير ، وفي اليوم السابع والعشرين من رجب ، وفي نصف شعبان ... كما كان يتلى طوال شهر رمضان.
وسميت ختمة لأن القراء الأربعة أو الخمسة كانوا يختمون فيها قراءة المصحف كاملا ، يجودون بعضه ، أي يقرأونه بصوت مرتل مرتفع ، ويسرون بعضه ... وهذا متروك لذمتهم ! ، فبعضهم - وهم الأتقياء – يتحرجون فيقرأون نصيبهم كاملا في سرهم ، ان لم يكن يوم الختمة فبعدها، وبعضهم يهمهم ويتمتم ويمضغ بضع آيات ، وهو يرفع صوته بين آن وآخر بكلمة مفردة أو مقطع من كلمة ، يعود بعده إلى الخفوت والأسرار ، ثم يعلن انه انتهى من قسمه المقرر ... وصدق الله العظيم. !

كان هؤلاء القراء يدعون قبل الختمة بليلة استعدادا للصباح المقبل ، فإذا صلوا الفجر حضروا إلى الدار وجلسوا في
"دوار البيت"يتلون القرآن بصوت خفيض حتى تطلع الشمس ، وعندئذ يقدم لهم طعام الإفطار ، وهو غالبا من الأرز المطبوخ باللبن ، أو من خبز القمح المفتوت في اللبن المسكر - وذلك ان كان هذا موسم اللبن بين الخريف والربيع – فإذا كان في الصيف وكان اللبن شحيحا في المنزل وفي القرية ، لأن حيوان اللبن يكون في هذه القرية قد رفع –أي رفع لبنه وقطعه استعدادا للولادة في الخريف– فيما عدا الحيوان " الكندوز" وهو الذي لم يتم لقاحه ، فيظل يحلب إلى العام التالي على ولادة العام الماضي.

إذا كان كذلك فان طعام الإفطار يكون غالبا من العسل والجبن ، مع خبز القمح في بعض الأحيان ، أو مع الفطائر في أحيان أخرى .. ثم يظلون يقرأون القرآن وتارة بصوت مرتفع مرتل ترتيلا ، وطورا بصوت خفيض أو همهمة لاتكاد تبين ، حتى يقترب الظهر فيخرجوا إلى الصلاة ، ثم يعودون ليجدوا غداء من خبز القمح ومن الجبن والعسل حتما .. فيأكلوا ، ثم يقيلون ان كان الوقت صيفا إلى العصر ، أو يستريحون قليلا ويشربوا الشاي والقرفة والمدفئات الأخرى إذا كان الوقت شتاء .. فإذا وجبت العصر خرجوا إلى الصلاة أو صلى بعضهم في الدار..
ثم يجتمعون مرة أخرى بعد العصر ، فيظلون يقرأون تلاوة وترتيلا بصوت عال يسمعه معظم أهل الحي ... إلى المغرب حيث تقدم لهم الوجبة الرئيسية من اللحم والخضر والأرز والفاكهة الطازجة أو المطبوخة ... فيأكل بعضهم في تعفف وأدب، وهذه هي القلة القليلة ... أما الأكثرية الغالبة ، فتتناول الطعام في نهم ظاهر ، وبطريقة خشنة عنيفة.

ولا يزال يذكر أن بعضهم كان يقسم الرغيف من الخبز الشمسي الكبير ، الذي يعادل ضعف رغف المدينة .. إلى أربعة أقسام فقط ، ويغمس كل ربع في صفحة الطعام بجشع ونهم ، بحيث

يبتلع اكبر قدر ممكن من الأدام ، ثم يرفعه والسمن يسيل على كفه كلها وكراعه وينقط على ملابسه كذلك .. ثم يقذف هذا الحمل كله في فم واسع ، وما يكاد يلوي شدقيه لية هنا ولية هناك ، حتى يدهوره في بلعومه بصوت ظاهر ، بينما تكون يده مشغولة بتحضير القضمة التالية .. وهكذا حتى يصل إلى الرغيف التاسع أو العاشر في مثل لمح البصر ، ومن باب أولي يصنع ذلك باللحم والفاكهة ، وكان يوزع عليهم بسخاء حتى ليبلغ نصيب أحدهم رطلين.!

لذلك كانت طائفة القراء في القرية محسودة ، وكان الإقبال على تحفيظ القران شديدا ، فالقارئ مكفول الرزق معظم أيام السنة ، وهو يظفر من الطعام بما لايظفر به كبار أثرياء القرية في كثير من الأحيان .. ثم هو يتناول بعد ذلك كله أجرا قد يبلغ خمسة قروش في كل ختمة ، وان كان المتعارف ان يكون نصف هذا المقدار..

ولم تكن أيام " الختمة" هي كل الأيام السعيدة في حياة القراء ، فهناك المآتم وكانت تقام سبع ليال كاملة في القرية ، يتلى فيها القرآن عصرا وليلا وصبحا في بعض الأحيان ، ويقدم فيها الطعام للقراء مرتين في اليوم ، فيهما وجبة من اللحم والخضر حتما وهي وجبة العشاء.

ثم هناك " الطلعة" وهي التي تعقب الأيام السبعة ، حيث يذهب أهل البيت إلى المقبرة ، ويتوافد عليهم المعزون ، وهناك يقرأ القرآن ، وينال القراء كمية لابأس بها من الفطير .. ثم يعودون إلى الدار فيقرأون " ختمة" شأنها شأن الختمات المستقلة في المواسم .. وهذه يستوي في إقامتها الفقراء والأغنياء .. وعلاوة على هذا الطعام الفاخر طوال الأسبوع يقبض القارئ أجرا سخيا نظير إحياء المأتم سبع ليال ، قد يبلغ في بعض الأحيان نصف الجنيه ، وغالبا يكون خمسة وعشرين قرشا. !

أما " سهرة رمضان" فكانت موسما طويلا سعيدا لطائفة القراء .. فأكثر من عشرين بيتا في القرية كانت تقيم هذه السهرة ، فتستغرق بين الأربعين والستين قارئا – هم المحظوظون الذين ينظر إليهم زملاؤهم بعين الغبطة والحسد– وهؤلاء يتناولون في كل ليلة سحورا فخما ، وفي بعض البيوت يتناولون طعام الفطور أيضا ، فإذا كان العيد أقاموا " الختمة" وأكلوا الأكلة ، وقبضوا أجرهم عاليا ، جنيها في الغالب لكل " خطيب.! "
فلا عجب ان كانت هذه الطائفة مرموقة في القرية .. فهم ببركة كتاب الله يحملونه على قلوبهم ! ، مكفولوا العيش ، مستورون سعداء. !!

كانت ليلة نصف شعبان ، وكانت هذه الألوان المتعددة من الطعام ، وتناولوا طعام العشاء بعد أكل " الخطباء" ووزع الطعام على الفقراء ، وبقيت بقية من اللحوم ومن البطيخ " المشقوق"

فبات إلى الصبح!

وحينما متع النهار في الضحى ، اجتمعت العائلة فتناولت شيئا من اللحم مع الجبنة والخبز ، وتناول بعضهم شيئا من البطيخ .. أما الطفل فنظرا لتوعكه لم يمس اللحم ، وإنما تناول قطعة صغيرة من البطيخ ، مع لقمة مأدومة بالجبن .. وكفى. !

ولم تمض ساعة حتى بدأوا يشكون المغص ، ثم يسبق بعضهم فيفرغ ما في جوفه ، ويتأخر البعض قليلا ليلحق بالسابق ثم يغلبهم الألم ، ويأخذهم الدوار ، وترتفع في المنزل كله نغمة واحدة : الأكل مشموم!

كانت العائلة إلى هذا الوقت صغيرة ، مؤلفة من الوالدين و هذا الطفل الوحيد وشقيقتين له إحداهما تكبره بثلاث سنوات و الأخرى تصغره بهذا القدر أيضا .. ولكن كان يحيط بهذه العائلة الصغيرة عدد من الخدم ، لم يكونوا خدما في الواقع كما يفهم سكان المدينة هذه الكلمة .. كانوا ناسا من الفقراء ، بعضهم يمت إلى العائلة بصلة القرابة في أصولهم البعيدة ، وبعضهم يجاورهم في السكنى .. وكان هؤلاء ، وفيهم الرجال و النساء و الأطفال ، يقومون بشؤون المنزل – ما عدا إعداد الطعام الذي كانت تنفرد به أمه حتما – في فترات من النهار و الليل مقابلة أكلة ! أو شيء من الوقود الذي يلزم لهم من روث الدواب و في مقابل بعض الملابس التي يخلعها أهل البيت ، ويستطيع هؤلاء الفقراء ان يجدوا من الصلاحية
ما لم يجده أهل الدار ، ثم في مقابل كيلات من الحبوب في المواسم ، وكميات من التبن و أعواد الذرة الجافة للوقود.

وكانت الصلة بينهم وبين أهل البيت عائلية ، لا صلة الخادم بالمخدوم ، فهم يلقبون صاحب البيت " عمي الحاج " – وكان أبوه حاجا – ان كانوا صغارا ، و ينادونه بلقب " الحاج " فقط ان كانوا كبارا . بلا ذلة " سيدي " المتعارفة في المدينة .
أخذ أفراد العائلة واحدا بعد الآخر تظهر عليهم دلائل التسمم وارتفعت الصيحة : الأكل مشموم .. بالشين لا بالسين . والفارق بينهما هو تحديد التسمم بان بعض الزواحف قد شمته . وكان الذهن ينصرف غالبا إلى الثعابين وفي بعض الأحيان إلى الأبراص.

فكل طعام يترك مكشوفا – وبخاصة اللبن و البطيخ – يكون في اعتقادهم عرضة لأن يشمه الثعبان ، يشمه أي يلعقه . و " يبخ " فيه ، أي يترك فيه لعابه السام .. ومتى تناوله الناس سرى في أجسادهم السم سريعا ، كما وقع لهم جميعا !
لم تمض ساعة حتى كان الخبر قد انتشر في جميع أنحاء القرية وحتى كان الناس قد بدأوا يفدون أفرادا و جماعات ، فيهم الأهل و الأصدقاء ،وغير الأهل و الأصدقاء ، وازدحمت الدار

على سعتها بالوافدين من الجنسين . فأما والده فكان قد فرش له في " الدوار " المستقل عن قسم " الحريـــــم " وازدحم مكانه بالرجال من كل طبقة و سن . و أما هو ووالدته و أختاه ، فكانوا في القسم الآخر ، ولم يعد فيه موضع لقدم من الزائرات العائدات!

كانت الحالة تنذر بالخطر ، و السوابق في القرية لا تبشر بالخير في مثل هذه الحالات التي كثيرا ما كانت تتكرر ، و يكون سببها أما الأطعمة الفاسدة بسبب تناول البطيخ البائت يومين أو ثلاثة ، أو بسبب ثاني أكسيد النحاس الذي يتراكم في آنية الطبخ النحاسية ، ثم يعزى دائما إلى شم الثعابين ! أما في حالتهم هذه فأكسيد النحاس مستبعد ، لآن أواني الطبخ كلها كانت مطلية في اليوم ذاته بالقصدير ، لآن هذه المناسبة كانت تنال استعدادا خاصا و تهيؤا لها في كل شيء ! و الغالب ان هذا التسمم نشأ عن فساد البطيخ المشقوق ، فالبطيخ يناله هذا التسمم الذاتي في

كثير من الأحيان .. و ان كانت بقيته قد تناولها آخرون من الخدم فلم يتأثروا إطلاقا و كذلك بقية الطعام!

و قد كانت هذه الظاهرة مدعاة لفرض آخر – غير شم الثعبان – ذلك هو ... الحسد ! فهذا اعتقاد شائع في القرية .. محسودين على أشياء كثيرة و بخاصة مستوى معيشتهم ، وهذا ما يثير أعظم الحسد في القرية ، ولا يعادله شيء من مظاهر النعمة الأخرى .. فيكفي أن يطلع الناس على كمية اللحم التي تدخل البيت ، وعلى كمية السمن التي تستهلك فيه ، وعلى الفاكهة و سواها مما لا يتمتع به إلا بعض الناس ، حتى تثور أحاسيس الحسد في نفوس العدد الأكبر من القرويين ، و هم جد معذورين.

اتجه الرأي إذن إلى الحسد ، لتعليل هذا التسمم الفجائي الجمعي لأهل البيت ، بينما الذين تناولوا الطعام من الخدم لم يتسمموا .. ومع ان هناك تعليلات كثيرة لهذه الظاهرة، فان تعليل الحسد كان هو التعليل الأول المذكور . ولكن والده و هو رجل متنور لم يقبل هذا التعليل ، و لم يركن إليه ، فاتجه الرأي إلى التطبيب ، و علاج هذا التسمم بما يناسب من الترياق!

أما الطفل فلو انك اطلعت على حقيقة شعوره في هذا اليوم لرأيته شعور البهجة و الاغتباط .. فهذه " الهيطة " في الدار ، وامتلاؤه بالناس من مختلف الأشكال و الطبقات ، و دخول الناس و خروجهم ، واهتمامهم الظاهر بهم و به هو بنوع الخاص – اذ كان وحيد العائلة – وهذه الحركة الدائبة التي لا تهدأ ... هذا كله كان يثير حسه ، و يبهج خاطره – على الرغم من كل شيء – ولولا انه كان متوعكا من قبل ، لتضاعفت هذه البهجة . فما في كل يوم يظفر بهذا الهرج و المرج في الدار!!!

* * *

بين هذه الجموع الدائبة الحركة ، الكثيرة العدد ، كان هناك رجل ملحوظ ... كان طويلا نحيفا ابيض البشرة يرتدي جلبابا ابيض نظيفا ، مفصلا على طريقة البندر لا طريقة القرية ، و يرتدي فوقه ميدعة نظيفة كذلك ، ويلبس في قدميه " شبشبا " بادي الأناقة.

كان هذا الرجل الأنيق الملحوظ من بين الجمع كله ، يأمرو ينهي و لكن في رفق و لطف و ظرف ، وكانت أوامره و نواهيه تتعلق باستحضار كميات من اللبن ، يتولى بنفسه إذابة مادة خاصة فيها ، ثم يأمر فتحمل في أكواب إلى المرضى ... فلقد كان هو المشرف على علاج هذا العدد الضخم من المسومين . ذلك الرجل الملحوظ .. هو السيد الحكيم!

و يجب ان تعرف ان هذا السيد هو أحد التمورجية المفصلوين من المستشفى الأميري بالبندر ، وقد آثر – بعد فصله – ان يفتتح عيادة في القرية ، يتمتع بها بلقب الحكيم !!! و يذكر الطفل هذه العيادة : لقد كانت تشغل حجرتين كبيرتين نظيفتين فوق دكانين في سوق القرية .. وطالما دخل هذه الحجرة " للغيار " على جروحه الكثيرة التي كانت تناله من المطواة الحادة التي يحتفظ بها دائما لتقطيع القصب ، وخدش الأبواب و النوافذ الخشبية ، وقطع بكرات الخيط الفارغة نصفين وتصليحها لتعود " ظعانين " جمع " ظعنينة " وهي أنواع من الخذروف يوضع في ثقبها نواة بلحة بحجمها ، ثم تدار بإصبعين ، فتدور فترة من الزمن ، تطول أو تقصر حسب قوة اللاعب ، وصلاحية النواة للدوران ، وثقل الخذروف!
ثم لمرافقة أخته الصغيرة ، وهي طفلة كانت أذنها مريضة ، وكانت تفرز مادة تجتذب اليها الذباب ، حيث يموت هنالك ، و يصبح وجوده خطر !.. و عندئذ يذهب بها الى السيد الحكيم فيتولى تنظيف أذنها و إخراج الذباب منها بواسطة أنبوبة ضاغطة من المطاط .

ولم تكن هذه الأعمال الصغيرة وحدها هي التي يتولاها سيد الحكيم فجميع أنواع أمراض العيون ، و أمراض البطون ، و أمراض الصدر ... كانت تجد لها عنده دواء .. وكثير من العمليات كان يجري بالعيادة أو في البيوت ، ففتح " خرّاج " في أي موضع من الجسم ، وجبر كسر مهما يكن مركبا ... وعشرات من هذه العمليات البسيطة كان مشرط الرجل يجري فيها بكل اطمئنان ! نوع واحد من العمليات لم يكن يقدم عليه .. ذلك هو فتح البطن .. و لم يكن ذلك عن عجز – لا سمح الله – ولكن عن رقة قلب ، وعمق إيمان ! فهذه العمليات الوحشية هي من خصائص الحكيم الكبير . الحكيم الذي يحضر مع النيابة لتشريح الجثث و بقر البطون و التمثيل بالقتلى و

المصابين ! أما هذا الرجل الطيب القلب الوديع الأنيق اللطيف ، فلا يقدم على هذه العمليات الوحشية وانا هو آس لطيف رحيم ! و هو اليوم - يوم التسمم – في ميدانه الأصيل . ميدان الرحمة و التطبيب.

وأحب أن يفهم القارئ ، أن هذا السيد كان صديق المتنورين فحسب من رجال القرية ، وهم الذين كانوا وحدهم يلجأون إليه بأنفسهم و أبنائهم حينما يصيبهم مكروه .. وذلك تمييزا لهم من الآخرين الذين يلجأون إلى الوصفات البلدية وإلى حلاقي القرية ..! ان أصدقاء هذا السيد هم المؤمنون في القرية بالطب الحديث !!

وكان إن شفي المتسممون جميعا ، فكان هذا سببا في زيادة شهرته وارتفاع صيته ، وإقبال الكثيرين عليه حتى من غير المؤمنين بالطب الحديث ! و لم تكن " أتعاب " هذا السيد كبيرة ولا مرتفعة ، فهي لا تتجاوز القرش و القرشين.

بما في ذلك ثمن الدواء ... أما كيف كان يعيش من هذا الدخل القليل ، فيجب ان تعرف ان البلدة كريمة مضيافة فالعيادة بالمجان لا اجر لها وفيها يبيت ، و هو قلما يتناول الطعام على حسابه . فهم كل يوم ضيف عند أحد أصدقائه من سراة القرية المتنورين .. أولئك الذين يؤمنون بالطب الحديث لا بالخرافات و التدجيل!!!

* * *

أما الحادث الذي استطارت به شهرته ، وارتفع به إلى ذروة المجد ، فهو حادث آخر أعقب حادث التسمم ، وارتجت له القرية ارتجاجا ،بما اجتمع له من شتى لعناصر التي تدعو إلى اشد الاهتمام:

كان من بين الأولياء الكثيرين في القرية ، و لي عظيم عائش ، (و الأولياء أحياء وأموات وهم طبقات و درجات .)

كان وليا من بيت أولياء ، تتوارث أسرته الولاية من عهد بعيد . وكانت " شربته " ثقيلة ! لأنها كانت شربة عظيمة ، ومقامة في ديوان الأولياء لا يعلو عليه إلا الأربعة " المدركون : " السيد البدوي ، وسيدي إبراهيم الدسوقي ، وسيدي عبدالقادر الجيلاني ، والقطب المتولي ، وعلى رأس الجميع

"قطب الغوث " كما مر في صورة " المجذوب! "

وحتى الشيخ عبدالفتاح ولي هذه القرية الميت ، الذي تنسب إليه ، فيقال في موضع اسمها

الرسمي : بلد الشيخ عبدالفتاح : لم يكن في مرتبة هذا الولي العائش " الشيخ بكر " و لو انه اقدم منه و اعمق في النفوس ! و نظرا لقوة الشربة ، فان الشيخ كانت لا تزال تعاوده حالة الجذب العنيفة مع حالة الولاية الهادئة ، وكثيرا ما تغلب عليه الحالة الأولى ، فيظل عدة أيام مهتاجا ، لا يستطيع أحد ان يقرب منه ، إلا إذا شاء ان يستمتع بلذة العصا ، ليداوي بضربتها عضوا موجوعا ! ثم تعقبها حالة صمت مطبق ، وصيام دائم . فلا يأكل ولا يتكلم ولا يقابل أحدا ، ولا تناول في المدى الطويل إلا البلحة و البلحتين ، ومع قليل من الماء في صمت مطبق مقيم !وتارة يكون هادئا فيستقبل زائريه الكثيرين الذين يفدون على داره من شتى القرى المجاورة .

والسعيد من استطاع ان يلمس طرف ثوبه ، أما الذي يستطيع منهم ان يلمس كفه أو يقبلها فذلك هو الفائز في الدنيا و الآخرة ! ولكن الشيخ لا يتكلم كلاما صريحا قط . انما هي رموز قصيرة ، وإشارات مبهمة ، إلا ان لكل رمز تفسيرا ، ولكل إشارة معنى ، يتأوله القريبون من الشيخ من أهل بيته ومن المتصلين به . فان كان خيرا بشروا به أصحابه ، وان كان شرا دعوا ان لا علم لهم بمقاصد الشيخ ، فعلم ذلك عند الله...
وفي هذه الحالة يدرك أصحاب الحاجة انها لم تقض وانهم خائبون ، فينتظرون لحظة أخرى يكون الشيخ فيها أكثر رضاء عنهم ، وأشد استجابة لهم ، أو تكون أبواب السماء مفتوحة ، فتستجيب لهم عن طريق الشيخ المستجاب لو دعا ، وهم لا يدعو إلا ان يكون واثقا من الجواب !! فإذا استحم الشيخ و نادرا ما يستحم ، فالماء المبروك الذي استخدمه وحمل خيرات جسده ماء مقدس ، يحفظه أهله ليوزع بمقدار على المقربين المنتظرين ، بعضهم يشربه ، وبعضهم يغسل به عينيه و بعظهم يحفظه في زجاجات للضرورات!

على بيت هذا الولي يتقاطر الوفود وتتكاثر الهدايا : كل بمقداره .. والبيت مورد للضيوف من كل جهة . بعضهم يصب فيه و الآخر يستمد منه .. و الحركة دائبة ، و الخيرات كثيرة .. وكلها ببركة الشيخ العظيم . و البيت فوق هذا كله ..مستشفى ! فكل مريض استعصى شفاؤه ، يلزم بيت الشيخ لزوما ، ولا يكتفي بالزيارة و البركة المتقطعتين ، وهذه الإقامة لا يتمتع بها كل الناس ، فهي لخاصة الخاصة من العائلات العريقة الصديقة ، تلك التي لها خطر وخاطر عند الشيخ وعائلة الشيخ . وإلا فلقد كانت حجرات البيت وفناؤه لاتتسع كلها للراغبين .

كان من هؤلاء المحظوظين بالقرب من الشيخ فتاة شابة من أسرة عظيمة الثراء في بلدة مجاورة .. أصيبت بالجنون وجاء بها أهلها إلى دار الشيخ ، وكانت أبواب السماء مفتوحة . فاستجاب لهم الشيخ واذن لها في الإقامة .. فخصصت لها حجرة مفروشة هي وجاريتها الخاصة التي ربتها ، على سنة بنات الأثرياء في الصعيد .

ولسنا في حاجة إلى وصف الهدايا التي كانت تحمل إلى بيت الشيخ في نظير هذه الإقامة العزيزة .
ولكن يكفي ان نقول ان جملين محملين بالغلال و الذبائح و الحلوى و السكر و الفاكهة ، كانا يدخلان البلدة كل أسبوع ،
يفرغان في بيت الشيخ ، غير الملابس و النقود!

* * *

صحا الناس ذات ليلة على صراخ حاد و ولولة واستغاثة وهبوا من نومهم ، ليروا النار مشتعلة في بيت الشيخ ، انه حريق . والحرائق في القرية لم تكن تنقطع و بخاصة في الصيف بعد المحصول ، و تخزين الوقود من بوص الذرة وحطب القطن فوق السطوح ، وهي المكان الوحيد المتاح للقرويين في بيوتهم لهذا التخزين . ولم تكن نداءات الحكومة المتكررة بعدم تخزين الوقود فوق الأسطح اتقاء للحريق لتجدي نفعا ! فالمثل المعروف يقول : ان أردت ان تطاع فأمر بما يستطاع ! ، والقرويون لايستطيعون ان يجيبوا أوامر الحكومة هذة لإنها لاتستطاع ! ، وكان المعتاد في مثل هذه الحالات ، ان يصحو أهل البيت ليروا النار تشتعل في دارهم ، فتطلق النساء أصواتهن معولات مستنقذات ، ويرفع الرجال أصواتهم بالاستغاثة : " جاي يا أولاد جاي "فيكون هذا نذيرا بتوجه الناس إليهم من كل حدب و صوب ، وباستيقاظ السقائين بوجه خاص ، يحملون الزقاق التي يملأونها بالماء من الآبار في عنف وجهد ، إذا يستخدمون بكرة وحبلا ودلوا للمتح من الآبار البعيدة الغور .. ثم ينطلقون بهذه الزقاق يحملونها على ظهورهم من مسافات بعيدة ليكافحوا بها النيران ، التي سرعان ما تثب من بيت إلى بيت بحكم تجاور البيوت ، واتصال سطوحها وتجاور المواد القابلة للاشتعال ..

فأما ان يرفعوا الماء بطريق الضغط المحلي ، وذلك بإقفال فم الزق إلا فتحة صغيرة يخرج منها الماء مضغوطا إلى حد ما يرتفع ارتفاعا محدودا ، وأما بتسور المنازل المتجاورة وصب الماء منها على الحريق إذا كانت الحالة تسمح بذلك . بينما بقية الرجال يحاولون إنقاذ السكان ، ولعل سائلا يسأل من سكان المدينة المترفين :
وأين مضخات الحريق ؟ مضخات الحريق ؟ انها في المدينة يا سيدي وبينها وبين القرية أمد بعيد!!

صحت القرية كلها كما تصحو عادة لكل حادث ، وازداد صحوها حينما تناقلت الألسن ان الحريق

في دار الشيخ ...

في دار الشيخ ؟ أوممكن هذا ؟ أيحترق بيت الشيخ والشيخ فيه مقيم ؟ نعم يجوز ، ولابد من حكمة في هذا ، ولابد أن الشيخ غاضب على أحد ممن فيه.

وسرعان ما أعلن اسم المغضوب عليه ، فهو ابنه .. ابنه الأصغر الذي كان سببا في هجرة ابنه الأكبر من الدار ، بشجاره معه وعنفه عليه ، على غير إرادة الشيخ .. فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

على أية حال لقد انطلقوا يطفئون الحريق بكل ما فيهم من قوة ، فغضب الشيخ لا بد ان يفتأ و ثورته لا بد ان تهدأ .. ومن الواجب ان تطفأ النار أولا ، فالنار شيء مرعب مخيف . واتضح انه بعد حين ان النار قد التهمت جناحا كاملا من البيت هو جناح الابن و زوجه ، ومن ضمنه الحجرة المخصصة للفتاة المجنونة ! وحينما هدأت الحال وكان قد طلع الصباح ، وراحوا يتفقدون كل شيء . وجدوا الابن و زوجه سليمين ، فقد هربا قبل ان تلتهمهما النار ، ولكنهم نظروا في حجرة الفتاة فلم يجدوا إلا جثة محترقة قد استحالت قطعة من الفحم ، ولم يجدوا سواها أحدا ! وكانت الهزة عنيفة ، وكانت الصدمة قاسية ، ولكن هذا كان هو المقدور!

* * *

لم يكن بد من تبليغ الحادث إلى المركز . ففي الأمر قتيل . وفيه كذلك فقد شخصية أخرى – غير القتيل – لا يعرفون عنها شيئا ، والعمدة إذن لا يملك " التستر " على الحادث ، كما يقع في معظم مثل هذه الحوادث ، وسواها من حوادث السرقة و الشجار التي لا يصل فيها الأمر إلى حد القتل ، ولم يكن بد إذن من حضور النيابة و معها الحكيم الكبير لتشريح الجثة . للاهتداء لشخصية المحروقة : أهي الفتاة المجنونة أم هي جاريتها ؟ لم يكن يستطاع معرفة أيهما باللون أو بالحجم أو بالطول ، فأما اللون و الحجم فلا سبيل إليهما ، فقد استحالت فحمة محترقة ، و أما الطول فقد كانتا متقاربتين .. بقيت علامات موضعية ، فالفتاة عذراء ، لم تحمل ولم تضع ، والجارية سيدة حملت ووضعت ، فحجم الحوض وتركيبه إذن يمكن ان يفيد.

و قرر الطبيب الشرعي ان الفتاة هي التي احترقت ، وان الجارية هي الشخصية المفقودة . وانتهى التحقيق.

ولقد حدث في أثناء قيام الطبيب بمهمته ، وقيام المحقق بمعاينة دار الشيخ ، ان أدركته نوبة من النوبات الحادة المعتادة ، فهم ان يهجم بعصاه على الطبيب و المحققين .

فأمر المحقق بالقبض عليه ، لولا تدخل العمدة الذي اسر اليه بأنه رجل ولي ، وللقرية اعتقاد فيه عظيم ، وانه يخشى ثورة الأهالي لو اتخذ معه اجراء شديدا ، فاكتفى بتهديده ، واشترك

الطبيب في هذا التهديد ، فقال ساخرا:
لئن وصلت إليّ لأشرحن بدنك بهذا المشرط ..
وكف الشيخ عن التدخل وعاد إلى قواعده سليما!

* * *

و لم تكن هذه المسائل كلها لترضي أحدا..
فأولا - لا يجوز ان تحترق الفتاة ، وهي في رعاية الشيخ ، و تنجو الجارية ، وان لم يعرف لها مكان..
وثانيا – لا يجوز ان يلقى الشيخ تهديدات الطبيب دون رد فلا يبين كراماته معه!
و يظهر ان الطبيب في أثناء عمله كان قد طلب حلاق الصحة ليساعده ، فقيل له ان في البلد " سيد الحكيم " فأراد ان يعرف من هو هذا السيد فاستدعاه ، ولما علم انه تمورجي سابق استعاض به على الحلاق.

من هذه العناصر كلها انطلقت أسطورة طويلة عريضة ، تطوف أرجاء القرية كل يوم مرات ، وتعيش زمنا طويلا ، بل لا تزال تعيش إلى اللحظة الحاضرة .

انه في أثناء تشريح الجثة وقع خلاف بين الحكيم الكبير و سيد الحكيم . فأما الأول فيقرر أن المحترقة هي الفتاة و الغائبة هي الجارية ، و أما الثاني فيجزم بان المحترقة هي الجارية و الغائبة هي الفتاة .. ولكن الحكيم الكبير " شخط " في سيد الحكيم حتى لا يبطل كلامه ، فسكت مقهورا ، والحق معه .. معه بكل تأكيد!

اما هذا الحكيم الفاجر المستهتر الجاهل بالشيخ و كراماته ، فان اصبعه قد جرحت جرحا صغيرا جدا في أثناء عملية التشريح ، بعد ان تركه الشيخ مباشرة ، وما كاد يصل إلى أسيوط حتى كان الجرح قد امتلأ بالصديد فعملت له عملية قطعت فيها إصبعه ، ولكن بعد يوم آخر كان الصديد قد ملأ الذراع ، فعملت له عملية ثانية بترت فيها الذراع ، أما في اليوم الثالث فان " الغنغرينة " كانت قد ملأت بدنه ، وعجز الأطباء كلهم عن إنقاذه .. فمات!

وهكذا انتقمت الجماهير لشيخها ، واستردت اعتباره ، وأرضت شعور أهل الفتاة الخفي و آمالهم القوية في ان تكون ابنتهم على قيد الحياة.

ثم ماذا ؟ ثم استطارت شهرة لا تحد لسيد الحكيم . الذي غلب الحكيم الكبير!

* * *

ومع ان الجارية قد وجدت بعد ذلك هاربة مذعورة مختلة الأعصاب لشدة ما نالها من الذعر ، فان الناس جميعا – وأهل الفتاة خاصة – ظلوا يعتقدون انها الفتاة الهاربة ، اسودّ وجهها من الرجفة ، وانعقد لسانها فلا تبين .
و لولا انها ماتت بعد قليل لورثوها أموالهم وضموها إلى أنسابهم ، لأن الشيخ لا يقهر ، وسيد الحكيم لا يخطئ...

وعاشت هذه الأسطورة في القرية و مازالت تعيش.

العفاريت

كانت الليلة قمراء ... وإلا لما خرج هو ورفاقه الصغار بعد الغروب ، و لما جلسوا هذه الجلسة الهادئة فوق المصطبة ، يقصون " الحواديت "و لما استطاعوا بوجه خاص ان تكون جلستهم أمام هذه الطاحونة العتيقة ، ذات الشهرة المستفيضة بالعفاريت ! كانوا قد تنادوا بعيد الغروب ، و بعد تناول العشاء ... فطاف السابقون منهم بالدور يتصايحون بانشودتهم العذبة الجميلة ، التي يستطيعون فهم بعض مقاطعها ،أما البعض الآخر فمجرد استجابة للسجع و الغناء ...
انطلقوا يتصايحون:
"اللي ما يطلع ويلعب.
يقرصه حي و عقرب.
حتى الحاوي ما يحوي.
حتى الداوي ما يدوي ..
سن الفار .
عند العطار.
يضرب بالطار.
يا حلاوته. " !

و هم في كل لحظة يتكاثرون . بمن يخرج اليهم من الصبية ، وكلما مروا ببيت ، وسمع صبية هذه الدعوة التي لا قبل لهم بالتخلف عنها ، زعموا لأهلهم انهم لا بد ان يخرجوا ، و إلا حق عليهم هذا الدعاء ، وقرصهم الحي – أي الثعبان – و العقرب ، حيث لا ينفع في طبهم حواء الحاوي و لا دواء الداوي!

و بعد ان تجمع شملهم آووا إلى هذه المصطبة مطمئنين بالقمر الساري المنير ، وانسجموا في القمراء و السكون الشامل في القرية حتى عادوا أطيافا صغيرة ساكنة تنصت " للحدوتة " التي يديرها أحدهم ، والآخرون كلهم آذان...

وفجأة يقفز من نافذة الطاحونة الصغيرة العالية قط أسود ، فيهبط إلى ارض الشارع قريبا من المصطبة و ينطلق مسرعا .

أيها القارئ إذا كنت قد شهدت منظر العصافير تلقط الحب في الأرض ثم تفاجأ بجارح ينقض من السماء ، أو بصائد يصوب إليها ليصطاد ، فإنك مستطيع ان تتصور منظر هؤلاء الصبية ، حينما ركضوا مذعورين ، لهذا الطارئ المفاجئ المخيف !

عفريت!!!

هذه هي الصيحة التي انطلقت من أفواههم جميعا قبل ان يطيروا مذعورين ، كل منهم في الاتجاه الذي جرت فيه خطوته الأولى ، فقادته إليه قدماه في غير انتباه .. كلهم...إلا "جمعة"

وجمعة هذا صبي بدين ساذج طيب القلب ، يتم من الأم ، وكان مسكنه يجاور مسكن الطفل ، وهو رفيق طفولته العزيز ، على الرغم من الفوارق العائلية الكبيرة بينهما ، إذ كانت جدته لأبيه من أولئك الذين يتولون المساعدة من مرافق الدار..

ولكن هذا لم يكن ليفرق بينهما ، ولا ليخدش صداقتهما البريئة!

جمعة هذا لم يتمالك قواه ، ولم تسعفه قدماه ، فتلجلج واضطرب ، وكان القط قد ذعر لحركة الأطفال المفاجئة ، فجعل يتأرجح في اتجاهه ، فحسب الطفل المسكين ان العفريت يحاوره ، وبذلك فقد توازنه نهائيا فسقط مغشيا عليه كالأموات ! وكان صاحبنا قد لحظ سقط زميله العزيز ، ولكنه لم يكن في موقف يسمح بمساعدته ، حتى إذا ابعد في الجري مع زملائه ، وتفقد رفيقه فلم يعد ... عاودته الرغبة الملحة في ان يعرف مصيره ، فجعل يزين لبعض الأطفال ان يعودوا للبحث عن زميلهم المتخلف ، فاستجاب له بعضهم في خوف وتردد ، حتى إذا اقتربوا من ميدان الموقعة كادت

تخونهم شجاعتهم ، لولا ان اندفعوا في يأس ، فما راعهم إلا زميلهم جثة ، ولكن لاتزال تتردد فيها الأنفاس.

وعبثا حاولوا ان يعيدوا إليه انتباهه ، وطال وقوفهم بالبقعة الرهيبة فآثروا ان يتكاثروا عليه ، وان يحملوه متعاونين إلى مكان أمين ، ولم يكن بيته بعيدا ، فطرقوا الباب ، وفتحت جدته

لتستقبل حفيدها جثة ، وهي مضطربة مذعورة ، وبخاصة عندما سمعت القصة ، وأيقنت ان الولد قد مسّ..

وعبثا حاولت الجدة المسكينة ان تستعيد لحفيدها صحته بكافة الوصفات في الأيام المقبلة .. لقد رشت الماء والملح ، ومن المصطبة التي هبط عندها العفريت إلى باب الدار ... ولقد لجأت إلى أولياء القرية تستجديهم إنقاذ حفيدها الوحيد بالتمائم والتعاويذ .. ولقد أقامت له حفلة زار أنفقت فيها كل ماتدخر من القروش والملاليم .. ولكن شيئا من هذا كله لم يفد ، فلقد اخذ الطفل يهزل يوما بعد يوم ، وبعد ثلاثة أشهر كان قد فارق الحياة!

وسار في جنازة رفيقه يبكي ، وكانت هذه أول جنازة يشهدها ، وارتسمت الحادثة كلها في ذاكرته لا تمحى ... ولم يعد إلى هذه الجلسة القمراء إلا بعد مضي ثلاث سنوات ، حينما بلغت سنه العاشرة ، وصارت له في العفاريت عقيدة جديدة.

كانت هذه الطاحونة إحدى الطواحين كثيرة عتيقة في القرية ... وهي طواحين غير آلية ولابخارية ، بقية من الطواحين الساذجة التي يديرها الحيوان ، وتطحن في اليوم كله إردبا من الذرة أو نصف إردب من القمح ، وكانت هذه الطواحين منتشرة في القرية قبل مولد الطفل ، وعليها الاعتماد في طحن الحبوب للسكان ، وكان البقر هو الذي يستخدم فيها غالبا ، وان لم يمتنع استخدام الجمل والحمار في بعض الأحيان ، وكان بطبيعة الحال شاقة مرهقة للحيوان وللإنسان وبطيئة الحركة وذات صوت مزعج ، ومظلمة غالبا ... وقد انقرضت في الأيام الأخيرة ، وبطل العمل فيها ، حينما أنشئت في القرية طاحونتان آليتان بالبخار ... ولكن بعض أهل القرية ظل يرى في هذه الآلات الحديثة مفسدة للدقيق ، وقلة بركة ، وعز عليه ان يغير مألوف حياته ،فبقى القليل من هذه الطواحين يدار ، ومن بينه هذه الطاحونة " المسكون" أي التي تسكنها العفاريت!

وبقي بناء هذه الطواحين الخربة المعطلة ، وزاد خرابها وتعطلها في وحشة منظرها ، وبخاصة في الليل ، حين يسود الظلام في غير الليالي المقمرة المعدودة ، فاستقر في الأذهان أنها "مسكونة" بل مسكونة بشر العفاريت التي تعمر القرية ، وتتوزع في بعض البيوت المهجورة ، والمنحنيات المظلمة والجهات النائية ، والمراحيض على وجه الخصوص.

كان كل شيء في القرية يوحي بأسطورة العفاريت
الظلام الذي يخيم عليها بعد الغروب ، فتصبح شوارعها مظلمة حالكة ، لا يرى السائر فيها مواضع قدميه ، ولا يأمن ان يصطدم في كل خطوة بمجهول..
والطرقات المتعرجة كمسار الثعبان ، بحيث لا يدري السالك ما وراء كل ثنية وكل منعرج ، ان

كان أمنا وسلاما ، أم شرا وحربا فهو أمام كل ثنية يتوقع مجهولا غير مأمون.
والخيال القروي الساذج الذي يفسر الظواهر والحركات حسبما استقر فيه من الصور المخوفة والأشباح المجهولة ، في حلكة الظلام..
ثم الأولياء ، وما يشيع عنهم اتباعهم من الكرامات – ومن بينها القدرة على رق العفاريت وتقييدهم والحوادث التي يذكرونها عنهم في ذلك– فتختلط أسطورة العفاريت بأساطير الولاية ، حيث الخوارق والمعجزات ، وقوى الخير والشر في الكون والحياة.

على أية حال لقد كانت " العفاريت" شخوصا ماثلة في كل ذهن مذكورة على كل لسان ،يحسب لها حساب في خطوات الناس وفي حركاتهم بالليل والنهار .
إذا سقط طفل إلى الأرض ، بادرت إليه أمه أو من يكون حاضرا سقطته ليسمي عليه باسم الله ثم ليقول له : " وقعت على أختك أحسن منك" ان كان ذكرا أو " وقعت على أخيك أحسن منك" ان كانت أنثى .. وذلك تملقا واسترضاء للعفريته الصغيرة أو العفريت الذي سقط عليه الطفل أو الطفلة ، فقد كان مقررا ان كل امرأة لها " قرينة" من الجن ، وكلما ولدت الإنسية ذكرا ولدت الجنية أنثى ، والعكس بالعكس ، فإذا سقط الطفل سقط على نظيره وحينئذ لابد من تملق هذا النظير الجني وأمه ، وبذلك القول : " وقعت على أخيك أحسن منك" كي لاتؤذيه أو يؤذيه ، وذلك مع التسمية باسم ان كان مسلما ، باسم العذراء الطاهرة والصليب العظيم ان كان مسيحيا ، ثم المبادرة برش المكان بالماء والملح ، الذي يزعمون انه يحسم الشر بين بني آدم واخواننا الذين لايذكرون!

ومع ان منطق الأسطورة يقضي بان يكون لكل آدمي قرين مغاير له في الجنس ، إلا ان هذا لايراعى ، إذ تزدوج الأسطورة فيصبح لكل امرأة قرينة كذلك تلد مثلها وتقابل الذكر بالأنثى ! ، ويقع في بعض الأحيان ان يكون الطفل الإنسي الذكر جميلا فتغار القرينة الجنية لأنها ولدت أنثى ، وتزداد غيرتها جمال ابن قرينتها الإنسية ، وعندئذ تخنق الطفل في ليلة السبوع!
ولقد خنقت أخا شقيقا للطفل في ليلة السبوع!

كانت أمه تتطلع ان تأتي بشقيق يسنده ويؤاخيه ، وكان هو يلتقط هذه الأمنية فيتمناها ، وان لم يكن لها في نفسه معنى حقيقي .. ثم سمع الله دعاء الأم ودعاء صديقاتها وحقق نبوءة "الشيخ بكر" الذي زارته إحداهن مستفسرة عما تحمل صديقتها فسلمها عودا من القصب ، وكان هذا رمزا لأن ما تستفسر عنه ولد ذكر!

وولد طفلا ناميا جميل الطلعة ، فزاد ذلك في سرور الأسرة كلها ، واكمد كثيرا من خصومها الذين لايودون لها الخير والنمو ، وبينما العائلة تحضر ليوم السبوع ، وتستعد لإقامة " مولد "

ينشد فيه بعض المطربين الأناشيد ، ويتلو فيه بعض القرآن ، وتوزع "حلاوة السبوع " على الأهل والجيران وتوزع الأطعمة على الفقراء ... بينما هذا كله يمضي في طريقه كان الطفل المولود قد بدأت تبدو عليه أعراض غريبة ابتداء من اليوم السادس.

وشيئا فشيئا استحالت هذه الأعراض نوبات عصبية ، يختنق فيها الطفل ، ويرغي ويزبد ، وتربد سحنته وتسود ، ويبدو انه يعاني ألما لايطاق... ثم تهدأ النوبة فيهدأ ويروق ... حتى تعاوده من جديد.

انها القرينة ولاشك ، غاظها جمال الولد ونموه ، وهاجها الحسد الذي انطلق حول العائلة ، فأخذت في خنق الوليد ! ، واتجهت الأنظار إلى أولياء الله.

ومع ان والده لم يكن يعتقد في معظم هؤلاء الأولياء ولا في القرينة ، إلا ان الضعف الذي يحس به الإنسان أمام الخطر – ولاسيما الخطر على الحياة– ورغبته في ان يعيش له هذا الوليد ، وفي إلا يحتمل تبعة موته أمام أمه إذا مات.

كل هذه العوامل – مع ما رسب في نفسه من الأساطير التي لا يمحوها التعقل– قد جعلته يوافق على سلوك هذا الطريق ، ولما كانت الأم تعاني آلام الوضع التي يضاعفها موقف الوليد ، والخطر الذي يتهدد حياته بلا أمل كبير ، فقد تولت خالته حمله ، لتطوف به على الأولياء : الأحياء منهم والأموات ، علهم يستنقذون حياته المهددة من القرينة الثائرة ، التي ما تفتأ تخنقه حتى يشارف الموت ، ثم تدعه لحظة ببركة التمائم والتعاويذ والرقى فيهدأ ويروق!

ولكن وقع حادث جعل الأمل في شفائه ينهار ، وكاد يودي بحياة خالته أيضا.

كانت الليلة قمراء وكانت المسافة بينها ودار أختها - أم الوليد– قصيرة ، فخطر لها وهي ذاهبة بالطفل إلى بيت ولي في جنح الليل ، ان تمر بدارها لتستصحب منه خالتها هي ، وكانت سيدة " مبروكة" قريبة من نفس هذا الولي الذي تقصده ، وكان بيتها في حارة متعرجة عميقة ، في وسطها بئر ذات حوض تستقي منه الحيوانات ، وبجانبها نخلة في أحد البيوت.

ولما كانت الليلة قمراء وكل جرم يخلع بجانبه ظلا ، فقد كان ظل النخلة المتمايل بالهواء ينعكس على الأرض المقمرة ، ويتحرك فيطول ويقصر حسبما تميل النخلة ، ولابد ان حالة ذعر خاصة كانت تستولي على شعور الخالة ، التي تحمل على كتفها طفلا تتابعه قرينة جنية وتهم بخنقه ليموت ، وهي وحيدة والليل قد تأخر ... كل هذا هيأ لها ان هناك شبحا هائلا يطول ويقصر ، ويتمايل يمينا وشمالا ، أما جريد النخلة فقد بدا في الظل " كرابيج" هائلة يحركها ذلك الشبح في يده ، ويكاد يهوي بها عليها!

وكان هذا كافيا لأن تفقد تماسكها ، ولكنها استجمعت كل مافيها من قوة ، وأخذت تجري جرية الخائف ، حتى وصلت إلى باب المنزل فطرقته طرقا عنيفا مخيفا أيقظ النائمين فيه ، ثم سقطت

على عتبته ممسكة بيديها الوليد ، وهي ذاهلة كالأموات ! ، ثم أفاقت واستطاعت أن تذهب مع خالتها ورجل من أهل بيتها إلى بيت الولي أولا من أجل الوليد ، وثانيا من أجل نفسها ، فأبى الولي أن يستقبلهم ، وكان هذا إيذانا بفشل المهمة وبنفاذ القضاء. !

وفي اليوم السابع كان الوليد قد لفظ أنفاسه الأخيرة في نوبة من هذة النوبات الحادة ... كان " التيتانوس" قد قضى عليه لأن القابلة – المولدة– لم تعقم السكين التي قطعت بها الحبل السري ، وميكروب التيتانوس عالق بها ، فتسمم الجرح ، وبقي حتى استكمل مدة الحضانة ، وهي تتراوح بين أربعة وستة أيام ، وبذلك أتمت القرينة مهمتها وشفت غيظها من الوليد الجميل .!

ومنذ هذا اليوم لبس الطفل تميمة جلبتها معها " مغربية غجرية" وهي تميمة نادرة ، لأنها صورة من عهد سيدنا سليمان على إبليس وأبنائه جميعا وعلى " القرينة" وبناتها جميعا ، بالا ينال الأذى من يحملها ... ولقد ظل يحملها حتى تجددت له عقيدة اخرى من العفاريت بحكم ثقافته في المدرسة فتخلص من التميمة ، التي بقيت حتى حقق الله رجاء الأم بوليد جديد ... فألبسها منذ أول يوم ، وبذلك لم تستطع " القرينة" ان تمسه بسوء فعاش..
وتخرج في الجامعة ، ولا أدري ما رأيه اليوم في تميمته التي أنقذت حياته ، فاني لا أجدها من بين محفوظاته هذة الأيام.!

* * *

فأما كيف جدّت له في العفاريت عقيدة جديدة ، تخالف عقائد أهل القرية جميعا .. فلذلك قصة: كانت تصب في اذنه و وعيه عشرات القصص و الصور عن العفاريت ، ففي هذه الطاحونة عفريت يبدو في صورة قط اسود ، ولن ينجو من يمسه بحال ، و الحادث الذي وقع لرفيقه جمعة اصدق برهان على ما يقال.

وفي بعض الطواحين الأخرى عفريت يدير الطاحونة بالليل حيث لا يكون فيها أحد ، فيسمع المار صوت دورانها ، وفرقعة السوط الذي يلهب به السائق ظهر الثور و صوته " حاه حاه " ! وفي بعض المواضع تظهر " التزييره " وهي لباس اسود خاص فوقه حبره " مجترره " اي مصبوغة منشاه ، فيسمع لها حفيف عند الحركة وتمسك بيدها شعلة تحرق من تراه.

وعند البئر المهجورة في وسط القرية تظهر امرأة منتكثة الشعر بيدها مكنسة تكنس بها في

حلقة دائرة حول البئر ، و الويل لمن يقترب منها بعد العشاء ، وفي منحى مظلم في احدى الطرق شوهدت امرأة تمشي وهي جالسة القرفصاء وكأنما تبحث عن شيء في عرض الطريق .

و للنيل كذلك جنياته ، فالنيل حين يفيض و يغمر الأرض يحفل بالجنيات التي تتراءى للشبان خاصة عندما يسبحون في اللجة ، ثم تختطفهن وتختفي بهن في الماء ..

ثم ذلك العفريت التقليدي الذي يتبدى في طرقات المزارع في صورة خروف سمين لا راعي له ولا صاحب ، مما يطمع الذي يراه فيه ، فيقوده إلى داره ، حتى صار قريبا منها إذا بالخروف يلتفت اليه قائلا : ارجعني حيث اخذتني ، أو يكبر و يتضخم و هو يردد هذه الكلمات ، أو ينقلب طفلا صغيرا يردد هذا المطلب..

وعند ئذ يدرك الرجل المسكين أنه أمام عفريت ، فأما أن يلهمه الله أن يقرأ شيئا من القرآن : الصمدية أو آية الكرسي ، وعند ئذ يحترق العفريت ، فأما اذا كان يعرف اسم الله الأعظم – الذي لا يعرفه إلا الخواص القليلون ولا يبوحون به لأحد إلا بإذن خاص - ! فإن مجرد ذكره يقيد العفريت و يسمره في الأرض مكانه ، و يجعله خاضعا ذليلا خائفا من طلوع النهار عليه ، فيأخذ في استعطاف حامل الإسم الأعظم حتى يرق فيسمح له بالإنصراف..

فإذا لم يكن هذا ولا ذلك ، فالويل كل الويل لذلك الذي اقتاد الخروف. !

ومثل الخروف التقليدي ذلك الحمار الذي يجده بعضهم في طريق من طرق الحقول ، وعليه برذعته وفي فمه لجامه ، و هو حمار فاره يغري بالركوب ، فيركبه من جازت عليه الحيلة الشيطانية .. ثم يتكرر دور الخروف ، مع زيادة ان الحمار يرتفع براكبه ويرتفع ، و هو فوقه يستغيث ، ثم " ينكته "في الأرض ان لم يكن يعرف اسم الله الأعظم ، أو إذا كان يجهل القرآن ، أو لا يذكر شيئا منه في هذا المقام ، فينزل إلى سابع أرض ! أو ينزل مهشما على كل حال!

و في كل مكان عفاريت ، وكل ما يدب على الأرض في الليل ، أو يتراءى شبحه في القمراء ، فهو عفريت سارب يترصد المارة ، و هم دائما في فزع ، حيثما ساروا ، حتى لتبلغ الجرأة ببعض العفاريت ان يتراءوا بالنهار في صورة القطط السود ، لذلك يمتنع ضرب القطط السود نهارا ، وسائر القطط ليلا ، لأن كل قط بالليل هو مظنة أن يكون عفريتا ، أو ان يكون روحا لبعض الناس الذين تسرح أرواحهم ! ولسرحان الأرواح هذا قصة لا تقل شيوعا عن قصة العفاريت :

فبعض الأطفال – وبخاصة التوائم – تسرح أرواحهم إذا ناموا ، أي انها تفارق الجسد ، وتتراءى غالبا أو دائما في صورة قط ، فإذا حبس هذا القط لسبب ما ، بقي الطفل صاحب الروح نائما لا يستيقظ ، أما إذا ضرب فان الطفل يمرض ويحس الألم في الموضع المقابل في جسمه للموضع المضروب في القط ، و يموت نهائيا إذا قتل هذا القط حامل الروح!

لهذا – و لمظنة ان القط عفريتا – يحرم ضرب القطط ليلا ، و يحذر منه نهارا.

ومثل القط في تمثيل الروح ذبابة خضراء تشبه النحلة الصغيرة ، وهذه يعتقد الناس انها روح ، ولكنها من أرواح الموتى تطوف بالديار ، حول الأهل والأصحاب ، فتثير في نفوسهم حنينا وانسا ، ويحرم بطبيعة الحال مسها أو طردها عن الدار ! (١)

أما الجرأة الشيطانية العجيبة ، فتلك التي تتجلى في اقتحام بعض العفاريت لبعض المساجد . ولكنها – على جرأتها – لا تدخل المصلى انما توجد في دورات المياه . ولقد حدث " لعمي الشيخ علي - " وهو رجل من أصحاب الطريق – يرسل ذقنه من الأمام وعذبة عمامته من الخلف – حدث ان قام من نومه مبكرا على صوت ديك مبكر في الصباح ، فذهب إلى المسجد وهو يحسب الفجر قد حان ، بينما لم يكن قد مضى بعد نصف الليل كثير .
وهناك أراد ان يتوضأ وفتح الصنبور ، وإذا به يساقط على يده – لا ماء – ولكن لحما طريا يسيل على يديه ، ثم يتشكل طفلا سويا.
ولما كان الرجل يحمل اسم الله الأعظم ، وهو مطمئن إلى نفسه وعلى نفسه من العفاريت ، فقد صبر على هذا المزاح الثقيل قائلا للعفريت : اذهب يسهل الله لك ، وانتقل إلى صنبور آخر ، وثالث ورابع والفصل يتكرر ، وعندئذ تلا اسم الله الأعظم ، فصرخ العفريت صرخة مدوية ، وقال له : انما انا طفل صغير ، فاطلقني يا سيدي .. فأدركت الشيخ الشفقة ، وهش للطفل العفريت أيطلقه لوجه الله!

وكثير من الأطفال يبدلون ، وذلك ان ينفرد طفل صغير في مكان مخيف كالمراحيض ، وعندئذ تطلع العفاريت فتخطف الطفل الآدمي وتضع مكانه طفلا جنيا ، ولا ترد الطفل الا بعد اجراءات طويلة ، منها ان يغطس في النيل ويقال : " خذوا ولدكم وهاتوا ولدنا " فيتم التبادل!

شهر واحد كامل ، كان الناس يستريحون في من العفاريت ، ومن الفزع الدائم الذي يلاحقهم في غدوهم و رواحهم ، فينطلق الناس و الأطفال آمنين يتزاورون في البيوت ، و يتأخرون في السهر بلا خوف ، ويلعبون في الطرقات و أطراف الحقول ، و تقوم النساء في جوف الليل لقضاء الحاجات ، وللعجن بوجه خاص حتى يصبح العجين مهيأ للخبز عند الفجر .. هذا هو شهر رمضان الذي تقيد فيه العفاريت جميعا ، صغارا وكبارا ، فلا تتراءى للآدميين .. و ذلك منذ عهد سليمان عليه السلام!

---

(1)للعقائد المصرية القديمة أثرها في هاتين الخرافتين

* * *

عشرات من هذه الصور وهذه الأساطير وهذه الحوادث كانت تصب في ذهنه الصغير ، فكيف أمكن ان تجد له عقيدة جديدة في العفاريت ؟
كان ذلك حينما وجد بالمدرسة ناظر شاب ، شديد العناية بتربية التلاميذ الخلقية و الروحية ، و عدم الوقوف بهم عند حدود المعلومات المدرسية الجافة .. وحين رأى أسطورة العفاريت هذه تحتل مكانا أصيلا في أحاسيس التلاميذ و شعورهم ، اخذ يحاول ما استطاع ان ينقي منها أذهانهم.

قال لهم : ان كل حديث عن هذه العفاريت خرافة أساسها الجهل ، وان كل القصص التي تروى لهم عمن صادفوا العفاريت انما هي قصص مكذوبة لبعض الأغراض ، أو متوهمة في أحيان كثيرة ، وما القطط و الكلاب و الحيوانات ، التي يظن الكثيرون انها عفارت ، الا حيوانات حقيقية ، ولا سيما حين يلقونها في الظلام ، حيث لا تتبين لهم الأشباح ... وجعل هذا الموضوع مادة لأحاديثه في كثير من الحصص حتى كاد يؤمن بها بعض التلاميذ.

كان صاحبنا يثق بهذا الناظر و يحبه ، ويصدقه ويتأثر به .. ولكن العفاريت ..! هذا اعمق في شعوره من ان تمحوها هذه العوامل جميعا ، وان هزت أركانها في نفسه هزا . وكانت واقعة عملية أو عدة وقائع تكفي لانهيارها في حسه ، وقيام عقيدة جديدة مكانها ، وشاءت الظروف ان تيسر له هذه الوقائع التجريبية على يدي هذا الأستاذ أيضا.

قال له بعض التلاميذ : ان هناك عفاريت تظهر بصورة الأرانب في " الدرب الضيق " بعد منتصف الليل ، وهذا الدرب الضيق كانت شهرته بالعفاريت تعادل شهرة الطواحين المسكونة أو تزيد ، و اصل هذا الدرب انه منزل قائم في وسط القرية بين طريقين ، فشاء صاحبه ان يستغني عنه ، وان يفتحه من الجانبين ليوصل الطريقين ، و يوفر على المارة مسافات كبيرة كانوا يضطرون لقطعها كي يلفوا من الشوارع الخارجية البعدة.
فتح منفذان في البيت فحسب ، وبقيت سقوفه وعرصاته مظلمة – حتى النهار – ومن هنا سكنته العفاريت ، أصبحت مصدر رعب للسالكين فيه ، حتى لقد كان بعض الرجال يتهيب اجتيازه منفردا بالنهار بله الأطفال ، أما في الليل فمقياس الشجاعة الكبرى ان يمر به أحد منفردا ، و قلما كان أحد يقدم على قبول هذه المغامرة الفظيعة!

فلما قيل لهذا الأستاذة : ان العفاريت تظهر بعد منتصف الليل في هذا الدرب ، انتهزها فرصة ، و طلب من بعض التلاميذ ان يرافقوه ليلا بعد الميعاد المقرر لرؤية هذه الأرانب ، و لا مساك واحد منها والفحص عنه!
وهنا تردد التلاميذ بين الخوف وبين حب الإستطلاع ، و شجعهم وجود الناظر الذي يثقون بقدرته على كل شيء ، و حفظهم لآيات القرآن الواقية في مثل هذه المخاطر .. شجعهم هذا كله على تغليب حب الإستطلاع ، و قبل ستة منهم ان يقوموا بالتجربة الخطرة ، وكان هو واحدا منهم بطبيعة الحال.

وقبل الموعد المحدد اجتمعوا في المدرسة ليقوموا منها بالحملة الأولى من نوعها في القرية ، حتى اذا وافى الموعد ، وانقطعت الرجل من الطرقات الا الخفراء ، انطلقت الحملة العجيبة إلى الدرب الضيق مكمن العفاريت المرهوب . وحينما اقتربوا منه بدأت مفاصلهم تسيب ، أخذتهم قلوبهم ترجف ، وبحث كل منهم عن آية الكرسي والصمدية يتحصن بهما ويتقوى ، وانطلقت العبارات المطمئنة من الناظر . وان لم تصل في حقيقة الأمر إلى قلوبهم .. ثم اقتحمت الحملة الفخ يقدمهم الناظر ، وهنا كادت التجربة تخيب ، وتأتي بعكس المقصود منها على خط مستقيم ..

لقد استقبل التلاميذ عيونا كثيرة ، حمراء و زرقاء تتوهج في الظلام .. عيون العفاريت من غير شك ، وهي " تطق شرارا " كما سمعوا من الكثيرين ، وهذه هي العفاريت الأرانب ، تقفز وتثب ، و تجري من هنا ومن هناك ، و تمر من بين أقدامهم ، و تتخايل لهم عن الأيمان والشمائل.
واضطرب شمل الجمع ، وفقدوا كل رصيد من العزيمة و التماسك وندت آيات القرآن و الواقعية عن ذاكرتهم ، فلم يعودوا يجدونها – وهذا هو الخطر الأكبر الذي يواجه من يواجهون العفاريت ، إذ يفقدون في معمعات المعركة سلاحهم!
ولم يستغرق هذا كله إلا لحظة سمعوا فيها صيحات الناظر يقول:
هذه أرانب ، أرانب حقيقية . لا تخافوا ، أرانب لأصحاب البيوت المجاورة ، اقبضوا على واحد لنفحصه ، اقبضوا عليه لا تخافوا حلقوا عليها لنمسكها..
وعاد إلى قلوبهم شيء من الثقة المزروعة ، وقد تمكن الناظر من القبض على أرنب منها ، فأعلن بانتهاء الحملة بالفوز ، وأعلن عزمه على ان ينسحبوا إلى قواعدهم سالمين غانمين.

وعبثا حاول أن يشجع أحد التلاميذ على الإمساك هنيهة بالأرنب .. ومن ذا الذي جن منهم حتى يقبض بيده على العفريت ؟! وهكذا عادوا إلى المدرسة ، وهم في كل خطوة يرتقبون ان نطق العفريت ، ويناديهم ان يعيدوه إلى مكانه ، وإلا فالويل لهم أجمعين ، أو ينقلب في يدي الناظر قطا أو كلبا أو هواء ، يفلت من بين يديه دون شعور!

ولكن العفريت لم يغير صورة الأرنب ، ولم ينبس ببنت شفة .. وها هم أولاء قد عادوا إلى المدرسة .. فأخذ الإطمئنان يتسرب إلى قلوبهم . من يدري ؟
ربما كان الناظر محقا فيما يقول!
محقا أو غير محق ، لكنهم على أية حال لن يقبلوا ان يبيت عند أحدهم إلى الصباح ، كما يقترح الناظر ، فمن يدري ان العفريت يبدوا هكذا هادئا لأنهم جماعة ، فإذا انفرد بأحدهم تعفرت له من جديد ؟!
واستقر الرأي على أن يبيت العفريت في المدرسة ، و ان يحضروا صباحا ليروه ، فان وجدوه فهو أرنب ابن أرنب ، وان لم يجدوه ، أو وجدوا في مكانه حيوانا آخر ، فهو عفريت ابن عفريت!

وصحت التجربة ، وأصبح الصباح ، فإذا هو أرنب اصيل ، و أرسل الناظر فراش المدرسة يسأل أصحاب البيوت المجاورة للدرب الضيق عمن ضاعت له أرنب ، فعاد ومعه أحد السكان ليستلم الأرنب الغائب ، الذي تسلل من تحت الباب المرتفع عن الأرض وانساب في الدرب الضيق ، كما يصنع كل ليلة مع أخواته الأرانب العفاريت!

كان للتجربة قيمتها بلا شك ، ولكنها لم تكن حاسمة ، ولم يكن بد من ان تتبعها تجربة أخرى على الأقل ، قبل أن تتزعزع هذه العقيدة.
وقيل للناظر ان هناك امرأة محلولة الشعر ، تظهر في بعض الليال عند البئر المهجورة في وسط القرية ، وتكنس الأرض وهي جالسة ، تتحرك حول البئر حركة دائرية ..فاتفق مع عدد من التلاميذ عل ان يقبضوا كذلك على هذه العفريته!

يا للجرأة !! ولكن لماذا لا يجربون ، وقد عادوا من التجربة الأولى سالمين ؟ لقد ذهبوا ليلة و ليلة بعد انقطاع الرجل بهذه البئر ، فلم يظفروا بالجنية المعهودة .. غير انهم طفقوا يكررون التجربة حتى ظفروا بها ذات ليلة .. ولكن من ذا الذي يقدم على مواجهة الخطر في هذه المرة ، وما في كل مرة تسلم الجرة!
انه استاذهم الجريء .. ولكن ها هو ذا نفسه يتردد ، فيكتفي بالإقتراب منها إلى حد ، ومتى أدرك انه بتردده واضطرابه هدم كل ما بناه في نفوس التلاميذ خاطر واقترب ، وأسعفته علبة الثقاب في جيبه تنير له الطريق.
فماذا وجد ؟
إنها امرأة عجوز تقول له " : أف عليك ، سيبني يا ولدي اكنس الطريق للباشا المدير.. "
أي مدير ؟ وأي طريق ؟ .. ان في هذا الإبهام ما يثير المخاوف و الشكوك ؟

ولكنهم يلمحون البيت الذي خرجت منه مفتوحا ، فيدركون كل شيء:
انها عجوز خرفة معروفة في القرية ، لا تزال تذكر زيارة الباشا المدير للقرية في سنة من السنوات ، و لا يزال يخيل لها أنها تكنس الطريق للباشا المدير ، فلقد استقرت في نفسها هذه الحادثة الفذة ، التي ترج البلد رجا ، إذ يكلف كل صاحب بيت ان يكنس أمام داره ويرشه ، وانه لحادث رهيب!

* * *

أرانب الدرب الضيق ، وامرأة البئر المهجورة ، كلتاهما مع تعاليم الأستاذ المحبوب ، كان لها أثر في الطفل ، وكانت سنه قد بلغت العاشرة ، وكاد يتم دراسته بالمدرسة ، فأخذت أسطور العفاريت تفقد شيئا من قوتها في نفسه .. أخذت تتزعزع إلى الحد الذي يمكنه من إجراء التجارب بنفسه ، وهذا تقدم عظيم.

كان يسير دائما وفي جيبه علبة الثقاب – ولو لم يكن يدخن – ولكنه رأى في العلبة انقاذا في حادثة امرأة البئر ، فتابع هذا التقليد المحمود ، وحمل معه دائما هذا السلاح ، وساعده على ذلك ما سمعه من ان العفاريت تخشى النور ، و لا تقف لمن يثبت لها ، ولا يرتجف فؤاده حينما يلقاها.
و كان يجتاز شوارع القرية بعد العشاء - فلقد أخذ يصلي في المساجد تشبها بالرجال – ومنذ ان بلغ العاشرة كان في وهمه قد صار رجلا مسئولا ذا أهمية خاصة ، فما يليق ان يترك الصلاة الجامعة مع الرجال - ! كما بدأ يسهر و يتأخر في السهر حتى ليصل في بعض الأحيان إلى الساعة العاشرة.
أليس رجلا ؟ فلم لا يسهر كما يسهر الرجال ؟
وكان هذا يقتضيه ان يعود إلى الدار في الظلام ، وان يمر بمكان العفاريت ، وهي متناثرة في القرية ، لا يخلو طريق منها من مكمن أو اثنين على الأقل..

وعندما كان يقرب من الفخ ترتجف مفاصله ، وتسرع دقات قلبه ، و لا يستطيع ان يجتازه ، خوفا من ان يدعه " العفريت " يمر ، ثم يتقفاه ! وعندئذ كان يؤثر ان يقترب من المكمن حتى يصبح فيه ، ثم يوقد عود الثقاب ، ويقف للفحص عن كل جوانب المكان و زواياه ، حتى لقد كان يضع عينه على ثقب المفتاح في باب الطاحونة او سواها زيادة في التأكيد .. فإذا استوثق ان لا شيء ، سار في طريقه نصف مطمئن ، حتى يقترب من مكمن آخر.
و هكذا.

ولقد كان شأنه عجيبا في هذه الفترة ، فهو يحاول الا يؤمن بالعفاريت ، وهو يتشجع على السير في الظلام ، والاجتياز بمكامنها المرهوبة عند سواه .. ولكنه في الوقت ذاته يخشاها ، فيقف للفحص عنها . موهما لنفسه انه قد بريء من الأسطورة اللعينة!

وعلم الناس انه يجتاز هذه المخاطر ، فأشفق بعضهم عليه ، وأعجب بعضهم به ، وزاده هذا الإعجاب إمعانا في تجاربه ، فلم يصادف بعد اليوم عفريتا واحدا من العفاريت الكثيرة التي تأخذ على المارة طريقهم في كل مكان.

أقول : لم يصادف عفريتا واحدا .. ولكن الحق انه في ليلة ما كاد يفقد كل ثقته التي كونتها الحوادث و الأيام.

كان قد بلغ الحادية عشرة ، وكان مع أفراد عائلته مدعوين إلى عرس ابنة عمته ، وكان مفروضا ان يبقوا هنالك إلى نحو منتصف الليل ثم يعودوا.

ولكن بدا ان والدته قد افتقدت شيئا من أشيائها نسيته في منزلهم وأرادت استحضاره ، فتطوع هو في شهامة الرجال للقيام بهذه المأمورية ! ولكنها لم تأمن ان يذهب وحده ، فآذى هذا التخوف كبرياءه ، وأصر على ان يذهب و يعود . وكان هناك طريقان من منزل عمته إلى منزلهم . أحدهما:

طريق طويل يطوف بالقرية من أطرافها . والآخر : طريق قصير ، ولكنه يمر بالدرب الضيق ، فحذرته أمه ان يمر بهذا الطريق القصير ! وكان هذا التحذير كافيا لأن يقتحم الطريق القصير في هذا الوقت المتأخر – و الوقت يعد متأخرا في القرية بعد عودة المصلين من صلاة العشاء ! -وهنا يحس بالرهبة على مدخل الدرب ، و لكنه مع ذلك يجتاز .. فيقع ما يثير الرهبة الكامنة وراء الشجاعة المصطنعة:

كان في ركن من أركان البيت – الذي هو الدرب الضيق – كومة من الآجر ، فأحس عندما قرب منها أن هناك حركة تخلخلها فيسمع صوت لاصطدام القوالب ، ثم نظر فرأى وهجا يوصوص بين فتحات الكومة الكبيرة .. عندئذ استل سلاحه و أوقد عود الثقاب ، فعاد كل شيء ساكنا ، واختفي الوهج الذي كان يوصوص له .. وانطفأ الثقاب ، وإذا بالحركة الأولى تعود . و كاد يفقد تمساكه عندما كرر العملية مرات ، وفي كل مرة تتحد النتيجة.

وتسمرت رجلاه في مكانهما فلم يعد يجرؤ على الخطو ، و لا يغادر موقف الخطر ، وطال الوقت ، و أخذته حمى عنيفة في إشعال الثقاب ، حتى كاد ينفد ، وهو لا يملك التقدم ولا التأخر ، ولا يملك الكف عن إشعال الثقاب.

و أدركته عناية الله ، فإذا بأحد المارة من الرجال ، و قد راعه النور والظلام المتناوبان ، فأوجس خيفة ، و تقدم في حذر حتى وقع نظره عند إشعال الثقاب على وجه آدمي ، فصاح

مذعورا:

"انس ولا جن ؟ "

ووجد الطفل نفسه ، فقال:

أنا فلان ابن فلان!

واقترب منه الرجل ، و هو في استغراب و دهشة ، فأوقد هو عود الثقاب الأخير ، وقال الرجل في إشفاق ظاهر:

وما الذي جاء بك هنا في هذا الوقت المتأخر ؟ لقد ستر الله عليك!

عندئذ عاودته شجاعته المصطنعة فقال : أنا لست خائفا ، فأنا لا أصدق مايقال عن العفاريت التي يقولون عنها!!!

وعلم فيما بعد انها فئران تسكن كومة الآجر ، وتشع عيونها في الظلام ولكنها تسكن وتختفي وهج عيونها في نور الثقاب!

* * *

ومرت أيام ، وغادر القرية كلها ، وعاش في المدينة حياته واتسعت ثقافته ، فعادت اسطورة العفاريت مثار تندره وفكاهته ، ولكن اسال أحلامه اليوم و رؤاه ... انها لتنبئك أن أسطورة العفاريت أعمق في نفسه من الثقافة ، وان العفاريت التي رافقت عقله في طفولته وصباه ، ستظل ترافق خياله على مدى الحياة.

حركة ثقافية

تلك التي كانت تنبعث في القرية ثلاثة أيام أو أربعة في بعض اشهر السنة ، وتمتاز عند جمهرة القرآء فيها امتيازا خاصا ، و تظل مذكورة حتى يحين الموسم كرة أخرى..

تلك هي الأيام التي كان يصل فيها إلى القرية " عم صالح " حاملا على كتفه غرارة " زكيبة " حافلة بالكتب ، فيجلس في سويقة القرية متربعا فوق الغرارة بعد إفراغها ، ويرص أمامه هذه الكتب التي قد تبلغ العشرين و الثلاثين صفوفا صفوفا ، حسب قيمتها ، أو حسب موضوعاتها!

وحذار أيها القارئ أن يعلو شفتيك الابتسام وانا اصف لك هذه المكتبة بانها مرصوصة على الأرض .. فان محتوياتها لكفيلة بأن ترد إليها اعتبارها في نفسك .. وذلك متى علمت انها كانت

منوعة الموضوعات والاتجاهات.

فمن كتب " الشّــُعر " هكذا بضم الشين كما كنا ننطقها نحن الأطفال ، وكما كان ينطقها المثقفون من رجال القرية أيضا تمييزا لها عن الشعر الذي نأخذه في المحفوظات ــ والذي هو من خصائص العرب القدامى ، كما أخذنا من صفات العرب – من كتب الشعر تلك تجد قصص ابي زيد ، وهي كثيرة ومتنوعة - و قصص الزير سالم وكليب ، وقصص الزناتي خليفة و دياب بن غانم .. ومن كتب المدائح والسير : تجد البردة ، وسيدي ابراهم الدسوقي ، و السيد البدوي مع بنت بري ، و سيدي عبدالقادر الجيلاني . وسع اليتيم وإعلام الناس فيما جرى للبرامكة مع بني العباس..

ومن كتب البطولة ، تجد كتب الأميرة ذات الهمة ، وسيدي محمد البطال ، و الملكة حنّة..

ومن الكتب الدينية تجد دلائل الخيرات ، ودعاء نصف شعبان ، ودعاء ليلة القدر..

ومن الكتب البوليسية : شرلوك هولمز ، و سنكلر ، و اللص الشريف..

ومن كتب الثقافة العامة : تجد كتب التحلية والترغيب في التربية و التهذيب ، و الفوائد الفكرية . كما قد تجد الجزء الأول من كتاب النحو للمرحوم حمزة فتح الله ! أو بدائع الزهور في وقائع الدهور.

ثم يحدث في بعض الأحيان ان تحتوي غرارة عم صالح على ما هو أخطر من ذلك كله : يقع ان يحمل في بعض الأحيان نسخة من كتاب عنترة الفوارس ، أو ألف ليلة و وليلة ، أو .... وهنا لا بد ان نقرأ هذا الكلام همسا في سرك – كتاب أبي معشر الفلكي في التنجيم ، وكتاب شمهورش في السحر ، وكتاب الفرائد الطبية في الطب .. وهذه الطائفة الأخيرة من الكتب لا يكشف عنها " عم صالح " آلا للخواص من زبائنه وقرائه ، و لا يسلمها لهم الا بعد أن يأخذ عليهم عهد الله الا يستخدموها في مضرة الناس .. لذلك كان لها جو سحري خاص ، يتم فيه التبادل ، كما يتم توقيع اخطرالمعاهدات السرية..

كان صاحبنا زبونا ممتازا عند " عم صالح " يعرفه جيدا ، ويحتفظ له بأجود الكتب ، أكثرها خطرا ،. فما كان صاحبنا ليبخل على الكتب بالمال مهما ارتفع السعر ، حتى لو بلغ ثمن الصفقة الواحدة خمسة قروش!

وهذه الكتب القيمة كانت أسعارها تبدأ من المليم حتى تنتهي إلى القرشين ، وقلما تجاوزت هذا الحد الأعلى الا في الطائفة الأخيرة من الكتب الأخيرة السرية الخطيرة!

وكانت الأيام الثلاث أو الاربعة التي يهبط فيها " عم صالح " إلى القرية هي أجمل الأيام عند صاحبنا ... كان يستعد لها حوشه من نفقاته . فإذا نفد الرصيد استعان بوالده فطلب منه القرش و القرشين و الخمسة في بعض الأحيان .. وإنه لمبلغ جسيم في ذلك الحين . فسنه لم تكن

تجاوز العاشرة ، وهو في القرية لا يجد ما ينفق فيه مصاريفه القليلة التي يتسلمها من أبيه ، إذ كانت جميع حاجاتهمن الفاكهة و الحلوة مكيفة ، اللهم الا إذا شاء أن يشتري القصب من " عم خليل " ، فقد كان محظورا عليه ان يشتري البلح الرديء و التفاح الفج ، مادام والده يستحضر حاجة المنزل من أجود مايعرض في القرية . ثم انه لايسرق شيئا من الجرن ولا من المنزل ، تلك السرقات المعترف بها في البيوت الأخرى كما سيجيء.

خمسة قروش إذن ليست بالمبلغ الهين في ذلك الحين ، و مع هذا فهو يدفعها كلها ثمنا لصفقة من صفقات الكتب ، فلا عجب إذا عده " عم صالح " من زبائنه الأعزاء!

وكان أصدقاء – قراء مثله – من زبائن " عم صالح " ، بعضهم من تلاميذ المدرسة وبعضهم من الشبان الذين تخرجوا فيها ، أو اخرجوا منها حينما] طالت](١) شواربهم ، واسترسلت ذقونهم ، وصاروا في عداد الرجال.

فهولاء معه كانوا جيرة " عم صالح " طوال الأيام الثلاثة الناشطة ، يشترون منه ما تسمح لهم ميزانياتهم بشرائه ، ويقرؤون نظير مليم عن الكتاب ما يعن لهم من الكتب الأخرى على ان تكون الاستعارة داخلية – أي بجوار عم صالح في سويقة القرية – اللهم الا صاحبنا هذا فقد كان يسمح له باستعارة خارجية نظير ايداع نصف قرش عن الكتاب .. ثم يرده إذا لم يكن ينوي اقتناءه ، أو إذا عجزت ميزانيته عن المزيد من الشراء ، وفي هذه الحالة يوصي " عم صالح " ان يحتفظ له بهذا الكتاب حتى يعود ، فيكون قد اعدّ له ثمنه الهائل .. فيعد الرجل و الحق انه كان يفي دائما بالميعاد!

ولم تكن هذه الحركة الثقافية لتنقطع بعد رحيل " عم صالح " ، فهذه الكتب التي اشتراها القراء ، كانت تظل تتبادل بينهم فترة أخرى ، حتى تتم قراءتها للجميع ، وعندئذ يكون الموسم التالي قد اقترب ، فيأخذون في انتظاره .. وهكذا على مدار العام!

---

(1)أصلها في نسخة الكتاب هكذا : طـــرـــــ ت ... وتم تعديلها بإجتهاد شخصي مني كما يناسب الحدث " لخطأ مطبعي يبدو " (الضبح)

* * *

اشتهر صاحبنا بالكتب و بالقراءة في أوساط المثقفين بالقرية ، فارتفع في أعينهم درجات ، واخذ الجميع يتنبؤون له بالمستقبل الزاهر .. ماذا ؟ أليس على صغره يقتني مكتبة ضخمة يبلغ من ضخامتها ان تملآ صفيحة كاملة ؟
نعم صفيحة ، فقد اختار لها هذا النوع من الصيانة بوصاية " عم صالح " الذي قال له ان الخشب " يربي العث والصراصير . أما الصفيح فلا ، إذ يسهل بين الحين و الحين مسحه بزيت البترول ، حيث لا يقربه العث و لا الصراصير .. ولما كان حريصا على كتبه ، فقد اعد لها هذا الصندوق من الصفيح ، وجعل له غطاء محكما ، صنعه له " السمكري " من الصفيح أيضا ، وبذلك صينت المكتبة التي ظلت تتضخم وتتضخم ، حتى وصلت في بعض الأحيان إلى خمسة وعشرين كتابا!

الحق انه كان عاشقا لهذه المكتبة الفريدة من نوعها في القرية ، بما تحويه من شتى ألوان الثقافة ، فما كان ينقصها لتصير مكتبة جامعة الا ان تكون فيها نسخة من " البخاري. "
ولكن من أين له بنسخة البخاري و هو طفل ، وهذه لا يقتينها إلا رجال الأزهر – وكانو نحو عشرة في القرية - (1) ولهم فيها مقام ملحوظ واحترام كبير ، فأيديهم تقبل من الجميع ، كما لو كانوا أولياء ، و الحق أنه لم يكن يعلو على مقام العلماء في القرية الا مقام المجاذيب و الأولياء!

عند هؤلاء كان يوجد كتاب البخاري .. وعند رجلين آخرين في القرية : خطيبين أي قارئين للقرآن .. ولكنهما يتعاطيان مع هذا صناعة الرقي والتمائم و التعاويذ .. والسحر أيضا .. فالطفل المريض ، و المرأة الممسوسة ، و الزوجة المكروهة ، و الرجل المربوط (أي الذي يسحر له ليلة زفافة فتسلب رجولته حتى يفك الرباط (! ، كل هؤلاء كانوا يجدون عند هذين الرجلين وعند سواهما الكثيرين من مزاولي " الكتابة - " أي كتابة السحر –ما يطلبونه من رغبات في نظير الأجر المعلوم.
الا ان هذا الرجلين كانا يمتازان بأن كلا منهما يملك نسخة من " البخاري " التي لا يملكها الا علماء الازهر القادمون من القاهرة.

---

(1)كان هذا قبل ربع قرن ، أما اليوم فعمرت القرية بعدد لا يتجاوز المائة ممن تعلموا تعليما عاليا ومتوسطا وفي مدارس المعلمين

اما لماذا كان لنسخة البخاري هذه القيمة فإليك البيان:
تقع في كثير من الأحيان سرقات من البيوت ، يكون أبطالها أما ربة الدار أو زوجة الإبن و اما أحد الأبناء ، واما واحد أو واحدة من الخدم في بيوت الأثرياء ، وهي غالبا من الغلة المخزونة في الدار او الجرن أو قطعة ذهبية أو نقود.
وان يسرق الخدم من البيت هذا أمر معروف ، اما لماذا يسرق الأبناء أو زوجة الابن ، أو زوجة صاحب الدار ، فتفسير ذلك راجع إلى الحالة الاقتصادية التي تجعل المصروفات اليومية للأبناء أمرا غير معترف به حتى و لو كبروا و تزوجوا – وهم يزوجون طبعا عن طريق الاباء و الأمهات ، و يظل الآباء يكفلونهم و زوجاتهم سنوات طويلة حتى يموت الوالد فيرث الأبناء !

فإذا كبر الولد و بلغ مبلغ الشباب ، لم تكن له مندوحة عن السرقة ، لأنه لا بد ان ينفق شيئا في مجامع الشبان أمثاله : يشاركهم في شراء القصب حيث يمصونه جماعات و يشاركهم في الشاي ، حيث يستحضرونه هو و السكر بالتناوب ، و يشاركهم في اللحوم والكلاي و الكبد ، التي يشترونها معا
و يأكلونها خفية في [الحقل](٢) أو في بيت أحدهم ، لأن الكمية التي يحصلون عليها في وسط العائلة لا تكفي لنموهم في هذه المرحلة ، لا بد إذن ان يسرق هؤلاء لهذه الأسباب ولغيرها ، كأن يكون أحدهم قد خطب له ليتزوج ، و لابد له من هدايا يقدمها لخطيبته وأهلها – زيادة على الهدايا التي يقدمها أهله وهي غالبا قليلة .. لا بد له ان يحمل إليها منديلا " بأوية " أي " مشغولا " مزخرفا ، أو رطلين من العنب ، أو ربع كيلة من البلح ، أو" لبشة " قصب – وهي حزمة عددها أربعة و عشرون عودا – .. إلى آخر هذه الهدايا التي لا بد لها من ثمن ، و التي لا يجد الشاب ثمنها الا ان يسرق
شيئا من بيت أبيه في طور الخطوبة ، وفي شهر العسل كذلك ، إذ يحضر لزوجته سرا و بعيدا عن علم أمه و أبيه كميات من " المكسرات " أي الجوز والبندق و اللوز و شيئا من الحلوى و الملبن و كمية من الصابون ليستحما بنسبة عالية ، لا تنهض بها الكميات المعتادة في منازل القرية...

---

(2)الأصل في نسخة الكتاب كتبت هكذا : الحفل – أي بالفاء– وقد تم تعديلها بإجتهاد شخصي مني كما يناسب سير الحدث.(الضبح

وتسرق زوجة الإبن هي الأخرى ، لأنها شابة ، لها مطالب غير مطالب الدار المقتّر فيها غالبا .. تلزم لها كمية من المناديل المشغولة و الصابون " الممسك " اي ذي الرائحة وزجاجات الروائح تتطيب بها لزوجها الشاب ، و الأمشاط المصنوعة من العظم – والتي تسميها عاجا – تلك التي تحملها " الدلالة " وتدخل بها إلى البيوت فتبهر النسوة و الشابات بوجه خاص – و لاسيما في الفترة الأولى من الزواج.

و تسرق لأنها شابة يتطلب جسدها الفائر أنواعا من التغذية لا تتوافر غالبا فيما يقدمه لها البيت من طعام .. فأما في أوائل أيام الزواج ، فان أهلها يتكلفون بذلك ، ففي السبوع الأول يظل أهلها يرسلون ما يسمى " العشاء الكبير " كل يوم . وهذا العشاء يتألف من ذبيحة أو نصف ذبيحة من الضأن أو الماعز ، ومن ملء إناء كبير أو إناءين بالخضر المطبوخة ، ومن " المشمشية " وهي المشمش الجاف مطبوخا في الماء و السكر و السمن . وهذا كله يقدم لأهل الزوج ، بينما يرسل للعروس و العريس قدر كاف من هذا الطعام مصنوعا صنعا أجود من العشاء الكبير ، وكمية السمن فيه اغزر لأنه خاص العروسين.

وتحمل هذا العشاء جماعة من البنات و النساء كل منهن تحمل اناء و يخرجن به بعد العصر من منزل أهل العروس إلى منزل أهل العريس في مظاهرة واضحة!

وبعد الأسبوع يتفاوت الناس في ارسال العشاء الكبير و العشاء الصغير فبعضهم يظل يرسل عشاء كبيرا في كل أسبوع وعشاء صغيرا في كل يوم لمدة شهر من الزمان ، ثم ينقطع العشاء الكبير و يستمر العشاء الصغير فترة اخرى ، و بعضهم يطيل المدة أو يقصرها ، حسب الحالة المادية من جهة وحسب البخل و السخاء من جهة أخرى ، ويظل هذا كله مذكورا على لسان القرية كلها بضعة أعوام أو على مدى الأعوام!

ولكن هذا كله إلى امد ينتهي على الأكثر عند نهاية العام الأول ، و تظل العروس شابة لا تكتفي بنيتها بالطعام المشترك مع أهل الدار ... فلا بد لها من ان تسرق إذن من وراء حماتها و " حماها " لتكمل نقص التغذية ، ولتدس لها بائعة الأرجل و القلوب و الأكباد و الكلاوي والكرش كمية مناسبة في يومي الخميس و الإثنين – اليومين الذين تذبح فيهما الماشية في القرية – وتطهيها لها في دارها ، ثم تحضرها زاعمة أن اهلها هم الذين بعثوا لها بهذه الكمية الإضافية ، التي تكون لحما وقد تكون شيئا من هذه الأحشاء . أو لتدسها لها نيئة فإذا غفلت العيون قامت في الليل ، و أنضجتها في حجرتها الخاصة وطعمتها هي و زوجها الشاب في غفلة من الرقباء.

وتسرق ربة الدار ، لأن لها مطالب كمطالب زوجة الإبن ، أو لأنها تريد أن " تحوّش " أو لكي تمد ولدها في دور خطوبته بما لا يمده به والده من نفقات.

وبعض أصحاب البيوت يكشفون هذه السرقات فيسكتون . وهؤلاء هم العقلاء الكرماء ، الذين يدركون حاجات أبنائهم و زوجاتهم ، و يعلمون أنهم لا يفون لهم بمطالبهم ، فيسكتون ..
ولكنهم لا يحاولون أبدا ان يفوا بهذه المطالب حتى لا تقع هذه السرقات!
وبعضهم يصخب و يثور و يهدد ، و يستجوب أهل الدار والخدم و بعض الزائرين و الزائرات ، فينكر الجميع طبعا تهمة السرقة.
وهنا يأتي دور البخاري!

فهؤلاء الناس يستطيعون يحلفون بالله كاذبين و بالنبي ، وهم آمنون .. ولكن هناك أيمانا أخرى لا يقدمون عليها ، وإذا قدموا فكذبوا فقد حلت عليهم النقمة و اصابهم الأذى ، ولم يعد لهم مفر من الجزاء المعجل في هذه الدنيا!
فاليمين الأولى التي لا يقدم عليها أحد هي يمين " المصحف " يضع المستجوب يده على المصحف ويغمض عينيه ، ثم يقسم انه لم يفعل ما يستجوب عنه.
واليمين الأقوى من يمين المصحف هي : " الشورى " ، يقول المتهم " بشورى لم أفعل كذا " فإذا كان كاذبا نفذت في جنبه " الشورى " ! فأصيب بالعمى أو الكسر أو بمرض عضال لا ينجو منه بحال!
و الأقوى من " الشورى " الحلف بولي من الأولياء ، و هؤلاء يتفاوتون – فبعضهم لا يطيق الحلف به فيسارع بعقاب الكاذب في التو و الساعة بأن يأتي له في الرؤيا ويحذره أو يبطش به ، وغالبا ما يقوم الحالم من نومه مفزوعا فيقر بذنبه و يرجو الصفح و المغفرة – وبعضهم طويل البال يمهل الحالف قليلا او كثيرا ، ولكنه لن يتركه بحال ، ولا سيما إذا كان الحالف قد وضع يده على قبة الشيخ.
أما اليمين المرهوبة المفزعة التي تهز أعصاب الحالف هزا ، والتي لا يقدم عليها الا من كان واثقا من صدقه ، أو مستعجلا اجله ، فهي البخاري..
ما ان يضع السارق يده على البخاري ويغمض عينه حتى يرتجف و ينتفض جسده ، وتعلو وتهبط دقات قلبه ، وتبدو عليه علائم الفزع الكامل ، فيعترف
في الحال أو ينكل عن اليمين فيدل على نفسه بهذا النكول .. فإذا هو خاطر و اقدم ، فلن يكمل ثلاثة أيام ، حتى ينفذ فيه البخاري ، فيقع له ما يقع من الأحداث ، وكثيرا ما يكون ذلك ا ختلاطا في عقله واضطرابا في أعصابه يفضي به غالبا إلى الموت أو إلى الجنون!
ولما كانت ليمين البخاري تقاليد خاصة ومراسيم ، فلا بد ان ينتقل صاحبه به إلى الدار المسروقة ، أو يأتي بالمتهمين إلى داره ليتولى تحليفهم اليمين ،في مقابل اجر معلوم.

نعم هناك طرق أخرى لكشف السارق وهي طريقة " المندل " وطريقة " الفنجان " فأما المندل :

فهو ابريق يملأ بالماء ويعلق بحبل من رقبته يمسك به " العراف " و المتهمون كلهم حوله في حلقة ، ثم يتلو على المندل بعض الرقي و التعاويذ و يوقد بخورا خاصا ، ثم يدير الإبريق من الحبل على الجالسين و هو يهزه بيده ، فإذا كان الإبريق في محتذتة السارق دفق من صنبوره الماء ، فيعرف الجاني بلا كلام ! واما " الفنجان " فيستحضر صبي صغير سهل التنويم .

ويمسك بيده فنجانا به آثار قهوة ، ثم يتلو عليه العراف ، رقى وتعاويذ ، ثم يأمره ان ينظر في قاع الفنجان ليرى فيه حركة ، ورجالا ونساء – هم طائفة من الجن حضرت للخدمة يسمون خداما – فيكلفه أن يأمرهم بالكنس و الرش وصف الكراسي،

فيرى الصبي انهم يصنعون ذلك ! ثم يكلفه ان يأمرهم بإحضار المتهم ، فيرى الصبي انهم احضروا رجلا وامرأة ، فيطلب إليه ان يتذكر من يشبهه هذا الذي احضر ، ويكون الصبي قد أرهق فيذكر اسما ممن يعرف .. فيأمره ان يصرف الخدام فيصرفهم ويستغرق في سبات عميق !

وإذن فقد عرف السارق ، الذي كثيرا ما يكون قد اقر للعراف عندما علم انه سيفتح الفنجان أو يدير المندل!!

ولكن المندل و الفنجان على السواء لا يبلغان من القوة ما يبلغه البخاري ، وبذلك تبقى يمين البخاري متفردة بين الأيمان ولعلك تدرك بعد ذلك كم يكون لوجوده عند أحد الناس من قيمة كبيرة في مثل هذه الأحوال.

* * *

لم يقدر لصاحبنا ان تحوي مكتبته العظيمة نسخة من كتاب البخاري ، لأنه ليس عالما في الأزهر ، وليس خطيبا كهذين الخطيبين الشهيرين في القرية كلها بهذا البخاري وبالقدرة على السحر وبخاصة سحر الزوجات للأزواج ، والضرائر للضرات ، وربط الرجال وفكهم . والسحر للاعداء عامة بالبخل و المرض و الجنون .. وكثير ما هم أولئك الذين يعيشون في القرية مسحورين في كل زمان ومكان!

ولكن إذا كانت قد فاتته نسخة البخاري ، فلقد كان في مكتبته كتب أخرى ، ضمنت له شهرة ذائعة ، وصيتا كبيرا – على صغره – في بيوت القرية ، وعند كثير من نسائها خاصة ، وكذلك عند فريق من الشبان.

كان في مكتبته كتابان :

كتاب أبي معشر الفلكي . وكتاب شمهورش . ولكل منهما قصة ، ساعدت على نشر شهرته ، وإذاعتها:

فأما كتاب أبي معشر فكان في التنجيم . وكان يحوي عدة فصول . ويذكر منها فصلا خاصا بالحظوظ المختلفة لمواليد كل شهر وكل فصل وكل يوم ، وفصلا خاصا بالحظوظ المختلفة تستخلص من حروف اسم الشخص واسم امه واسم الشهر الذي ولد فيه . وجمعها بحساب " الجمل " ذلك الحساب المعروف الذي يستخدمه بعض النظامين في التاريخ :
الألف تساوي واحدا ، و الباء تساوي اثنين ، والجيم تساوي ثلاثة على التوالي " : أبجد . هوز .حطى . كلمن . سعفص . قرشت ... " فالحرف العاشر فيها و هو الطاء بعشرة ، ثم تبدأ الياء بعشرين والكاف بثلاثين . إلى نهاية العشرة الثانية وهي القاف ثم تبدا الراء بمائتين و ... وهكذا – على ما أذكر – و هو حساب مأخوذ من اللغة العبرية القديمة.
ثم كان في هذا الكتاب فصل ، يغمض طالب البخت عينه ويضع اصبعه على أعلى الصفحة التي تحوي أرقاما متناثرة ، فالرقم الذي تقع عليه اصبعه هو رقم صفحة خاصة في الفصل خطت فيها حظوظه في الماضي و الحاضر و المستقبل ، كما قد خطت معلومات عن صفاته وأخلاقه و خصومه وأحبائه ، وسائر من يتعلق به ، وما ينبغي ان يعمله ، وما يجب ان يحذره ... الخ.

وأما كتاب شمهورش ، فيحتوي على كثير من الرقي و التعاويذ و صور القمائم ، ووصفات البخور ، وبعضها يجلب المحبة وبعضها يجلب السعد ، و بعضها مما يدخل به على الحكام ، فينال صاحبه القبول و قضاء الحاجات مع الاحترام.

تسامع نساء القرية وشبانها بالكتابين ، فأقبل الجميع على صاحبنا الصغير إقبالا منقطع النظير ، وذلك لأسباب كثيرة ! منها انه لا يتناول أجرا على الخدمات التي يقوم بها لهؤلاء ومنها انه صبي يدخل البيوت وتقابله النسوة والفتيات بلا تحرج ، ودون ان يثير وجوده بينهن تساؤلا كالذي يثيره وجود من يتعاطون هذه الأعمال من الكبار ، ومنها ان السيدة أو الفتاة ، لا تتحرج ان تفضي برغباتها و أسرارها ومخاوفها لصبي لم يبلغ الحلم ولا تدعو سنه إلى الخجل منه . وشيء من هذه العوامل كان في نفوس الشبان ، إذ كانت معظم المهام التي يندبونه لها هي مهام سرية من هذا النوع أيضا !

كان يحضر من المدرسة فيجد كثيرا من التوصيات بطلبه من عدة بيوت ، وبعضها كان يرسل رسولا يترقبه ليحضر به ، وبخاصة بعد ان عرف الجميع انه " مشغول " بالكثير من هذه الدعوات.
والحق انه كان يحس بنشوة عجيبة و الطلبات تتوالى عليه ، و الأبواب جميعها تفتح له . ولقد

كان صغيرا لم تثر في نفسه نوازع الجنس بعد ، وتربيته المنزلية جعل في نفسه كثيرا من الحشمة والحياء حتى لو ثارت بعض هذه النوازع .. ولكن إحساسه بالجمال الحي كان مرهفا .. فكانت هذه الزيارات والمقابلات ، و معظم موضوعاتها يدور على الحب و دواعيه . مما يغذي فيه هذا الشعور الوليد الغامض ، ويحبب إليه هذه الزيارات و المقابلات التي يجد فيها لذة غامضة عجيبة!

ومن الحق أيضا ان نقرر انه لم يخالف وصايا " عم صالح " وعهده الذي عاهده عليه ، وهو يستأمنه على هذه الكتب الخطيرة ، فلم يطع هوى ضرة تريد ان تكتب لضرتها بالعمى ، ولا حتى بكراهية زوجها لها . إنما كان يستجيب لرسائل المحبة بين الأزواج واستهواء الكاره ليعود إلى مطاقته ،والشاب المرغوب ليتقدم لخطبة فتاة تهواه!
اما معرفة الحظوظ فلم يكن هناك ما يمنعه ان يفضي فيها بما تكشف عنه النجوم ، حسب تعاليم كتابه العظيم!

* * *

من هذه النواحي كان راضيا عن نفسه ، راضيا عن مكتبته ، مغتبطا بسعة ثقافته ، وبسعة شهرته كذلك!
ولكن كتابا آخر كانت منه نسخة واحدة في القرية كلها ، يملكها شاب قريب له يكبره في السن . هذا الكتاب كان يود لو يملكه ، فتتم له معالم الثقافة والشهرة في القرية جميعا . ولكن هذا الكتاب الفريد ظل عزيزا عليه ، فلم يستطع سبيلا إليه .
ولو كان لهذا الكتاب نظير يشترى بالمال لاشتراه ، ولأوصى عم صالح ان يستجلبه له بأي ثمن كان ، ولكنه مع الأسف مخطوط بخط النبي سليمان عليه السلام ، وسليمان قد مات ، و يبدو انه – رحمه الله – لم يكتب الا نسخة واحدة من هذا الكتاب ، هي التي وقعت في يد قريبه الشاب ، حملها إليه مغربي يفتح الكتاب ، ثم لم يعد بعد ذلك أبدا ، ولن يعود ! لقد باعه له بكياتين من القمح ، بذل النفس والنفيس في سرقتهما من مخزن الغلال ، وذلك فوق ريال من النقود أمدته به والدته ، التي كانت حفية بمثل هذا الكتاب النادر الثمين!
ذلك كان " كتاب الكنوز! "

ان ما على ظهر هذه الأرض من الأموال و الجواهر لا يعادل عشر معشار ما يحويه بطنها من

الكنوز .. ولكن هذه الكنوز مرصودة ، ولا تفتح الا بقتل الأرصاد التي هي ديوك مسحورة غالبا ، أو كلاب أو خدام جنيون . وهذه لا تقتل الا ببخور خاص وتعاويذ خاصة ، وتجار تذهب في سبيلها الأرواح ولما كان " المغاربة " هم المختصون بهذه الشؤون كلها ، فقد كانوا يفدون واحدا بعد الآخر إلى القرية – والقرية حافلة بالكنوز – منها كنز يصل بين كنيستها والدير . وهذا الدير في حضن الجبل ، فهو يستغرق مساحة يزيد طولها على خمسة كيلو مترات كلها حافلة بالكنوز من شتى الألوان ، لا بل ان بيت جده لوالدته ليحوي كنزا كادوا يظفرون به في مرة ، لولا نفاد البخور المغربي . و البخور ينفد دائما قبل إتمام العمل ، ويحتاج إلى نقود كثيرة ليأتي به من البلاد البعيدة ، والمهالك الكثيرة ، فان كتبت له السلامة عاد ، وإلا استعوضوا الله فيه وفي نقودهم . و هو دائما لا يعود ، الا ان يأتي بقسط من البخور ينفد من جديد!!

هذا الكنز الذي في بيت جده لوالدته مرصود ، رصده ديك ، وطريقة استخراجه ان يجلس الساحر في ركن مظلم و أمامه البخور ، وفوق البخور " طاسة " من النحاس ، ثم " يعزم " فتتحرك الطاسة طائرة من ركن الحجرة إلى الركن الآخر ، ثم تهبط . وعندئذ تنشق الأرض ، ويخرج منها الديك يصفق بجناحيه ويصيح ، فترتج قوائم البيت ويكاد يسقط على من فيه ... وحينئذ يكون جماعة من الرجال مستعدين بالبنادق ، فيضربون هذا الديك برصاصهم بينما يستمر الساحر في التعاويذ وفي البخور ، فإذا أصابوه فتح الكنز ، وإذا اخطأوه تعرضت حياتهم للخطر.

ولقد تمت هذه المراحل كلها في مرة من المرات ، الا الخطوة الأخيرة . ويقسم الرجال انهم رأوا الطاسة تطير ، ورأوا الأرض تنشق ، ورأوا الديك يخرج ، و سمعوه يصيح ، وصوبوا عليه ، ولكن البخور كان قد نفد ، وانطفأ البخور ، فأظلم المكان ، وخروا جميعا مصروعين . لأن الرصد كاد يفتك بهم، لولا ان ذكر الساحر اسم الله الأعظم ،فكان هو المنقذ الوحيد!
وذهب الرجل ليعود بالبخور ، ولا يزالون إلى اليوم في انتظاره ، أو انتظار " مغربي جديد!

لو ملك هذا الكتاب إذن لتغير كل شيء في حياته ، ولكن قريبه هذا ضنين بالكتاب ، فهو مصدر ثروة خيالية مغرية ، وان كانت ثروة معطلة ، فالبخور المطلوب غير موجود ولا بد من مغربي يستحضره من المهالك و المفاوز .. وقد ظل قريبه ينتظر ، كما ظل يجري بعض التجارب الممكنة في كتابه ، حتى انتهى به المطاف إلى دنيا جميلة طليقة من كل القيود ، يجد فيها كنوزه هذه بلا رقي و لا تعازيم ، وبلا بخور ولا كتاب .
وهو الآن ينعم في هذه الدنيا الجميلة الطليقة ، ويتمتع بهذه الكنوز الغالية كل المتاع!!!

اما الطفل فقد رضي بنصيبه من الكتب ، وظل زبونا مخلصا لعم صالح ، وشيئا فشيئا أصبحت

مكتبته هذه مصدر حركة ثقافية دائمة ، بما اجتمع له فيها من كتب ثمينة ، تظل تستعار على مدار العام ! اما في السنتين الأخيرتين من إقامته بالقرية فقد حدث تطور خطير في هذه المكتبة لا يخطر على بال.

كان ذلك في نهاية الحرب العظمى الماضية . وكان بالمدرسة ناظر شاب يتقد وطنية ، ولما كان والد الطفل عضوا في لجنة الحزب الوطني ، ومشتركا في صحيفة يومية ، فقد كان منزلهم مثابة للوطنيين من رجال القرية ، ولهذا الناظر الشاب كذلك ، الذي انعقدت صداقة حميمة بينه وبين والده.

في هذه الإجتماعات كانت تدور أحاديث يحضر بعضها الصبي وبعضها كان سريا لا يعلم عنه أحد شيئا . وكان يسمع اسم " افندينا عباس " واسم الشيخ عبدالعزيز جاويش ، واسم فريد ، واسم أنور باشا التركي ، وطلعت ، و رؤوف وسفينته " حميدية " التي أذاقت الحلفاء الويل ! وكانت تروى عنها وقائع كالأساطير!

كان شعور القرية كلها متجها إلى تركيا دولة الخلافة ضد الحلفاء الذين كانوا يمثلون " الكفرة " يصارعون دولة الإسلام ! وكان يبدو ان هناك شعورا معينا يختمر . يذكر الآن ذلك ، ويدرك انه و هو طفل كان يتوقع في حسه – مع هؤلاء الرجال – شيئا غامضا لا يدري ما هو ولا كيف يقع.
ولكن شيئا ما سيحدث و السلام.

وكانت الاجتماعات السرية التي تعقد في منزلهم تلقي في روعه هذا الشيء الغامض الذي لا يدريه . وشيئا فشيئا اخذ
يشارك الكبار فيما يخوضون فيه ، ولا سيما انه كان قد وصل إلى السنة الرابعة الأولية ، وكان كثيرا ما يتولى بدلا عن والده قراءة الجريدة للجمع الحاشد الذي يحضر لاستماعها في منزلهم. وكان هذا قد لفت إليه نظر الأستاذ الناظر ، مضافا إليه تفوقه في الدراسة ، ولا سيما في دروس اللغة العربية .. عند ذلك وجده أهلا لأن يعيره كتابين عظيمين ، وجد فيهما الصبي طرازا آخر غير ما تحوي مكتبته العظيمة من شتى الثقافات . أحدهما ديوان رجل يسمى " ثابت الجرجاوي " والآخر كتاب تاريخي لمحمد بك الخضري في مقدمته صورة عباس الثاني وتنويه بمآثره.

فاما الديوان الأول فيحوي قصائد وطنية ، يدرك الطفل الآن انها كانت نظما في غاية الركة والسذاجة.

أما في ذلك الحين فقد كانت في نظره إعجازا من الإعجاز ، إذ كانت أفضل من قطع المحفوظات التي تحملها ذاكرته ، مثل:

اسلك بنيّ نهج السادات ... وتخلقن باشرف العادات

أو:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فاطالما استعبد الإنسان إحسان

أو:

قال ذو الإصبع العدواني يوصي ابنه :

عليك بالمال وتنميته ، فان المال آلـــــة المكارم ، وعون على الدهر ، وقوة على الدين ، ومألفة للإخوان ، ومعين

على حوادث الزمان .. " إلى آخر هذا الكلام الذي لم تكن بينه وبين نفسه صلة ما ، إنما هو كلام يحفظه و السلام.

كان يجد في هذا الديوان كلاما يغذي الروح الوطنية في نفسه تلك الروح التي أيقظتها الجو العائلي الذي يعيش فيه ، و الجو العام الذي كان مليئا بتيارات كهربائية خفية تستعد للانفجار.

ولا يزال يذكر بعض مقطعاته مثل :

وطني عزيز لا أروم ســـــــــــــــــــــــــــواه ... مهما تسور العدا مبنـــــــــــــــــــــــاه!

أمسي واصحوا من عناه على لظى ... بيدي نشيده للملا معنـــــــــــــــــاه !

وفي النهاية:

ما ثابت الجرجاوي قال مؤرخـــــأ ... وطني عزيز لا أروم سواه !

وقد زاد من قيمة هذا الديوان في نظره ، علمه بأن صاحبه سجين سياسي ، وان هذا الديوان مصادر بحكم الأحكام العرفية في ذلك الحين.

واما كتاب التاريخ ، فقد اعزه في نفسه ان صاحبه كتب في نهاية مقدمته:

"وقد لا يعاد طبع هذا الكتاب ، حتى تكون قد محيت منه هذه الفقرات"

يعني الفقرات الخاصة بتمجيد " الخديوي عباس حلمي الثاني. "

وإذن فبين يديه كتابان نادران ثمينان ، وفيهما مادة وطنية تشتاق لها نفسه المتعطشة لهذا النوع من الغذاء . ولما كان لا يتصور ان لهذين الكتابين نظيرا ، ولا ان صاحبهما ينزل له عنهما ، فقد احتفظ بهما في صورة أخرى:

جمع من كراساته في السنوات الماضية الأوراق البيضاء منها ، فصارت له كراسة ضخمة من الورق الأبيض . أما المداد و الأقلام فموفوران .. واخذفي صبر ودأب عجيبين ينقل الديوان بيتا

بيتا إلى هذه الكراسة ، وينقل كتاب التاريخ الأثرية ، التي لن يعاد طبعها حتى تمحى منها هذه الفقرات!
وانه ليعجب اليوم لنفسه كيف استطاع ان ينهض بهذا العمل ، ولكن الأعجب منه انه حفظ هذا الديوان حفظا جيدا ظل يذكره بعدها سنوات وسنوات!

وحينما انطلق في القرية يحدث أصحابه بمحفوظاته الجديدة ، ويزعم ان هذا الشعر لرجل يعيش هذه الأيام ، لم يصدقه أحد .. فالشعر خاصة عربية لسكان الجزيرة الأوائل ، ولن يستطيع أحد بعدهم ان ينظم بيتا واحدا من الشعر . ولما زاد لهم ان هناك شعراء آخرين يعيشون . اسم واحد منهم شوقي واسم الآخر حافظ – وكان قد علم نبأهم من أستاذه العظيم – لم يبق واحد لم يستنكر هذا الزعم الذي لا يصدق بحال.
وإذ كان حريصا على إثبات صحة دعواه فقد تراهنوا على ان يصبروا حتى يعود الذين يتعلمون في القاهرة من علماء الأزهر ، أو ذلك الذي يتعلم في دار العلوم . او ذلك الذي يتعلم في الحقوق – ومن هنا ترى ان القرية كانت قد نهضت نهضة كبيرة ! .. ليستفتوهم في هذه القضية الخطيرة ، ويصلوا فيها إلى قرار صحيح ! (١ (

أما هو فقد كان واثقا ان هنالك في هذا العصر من يكتبون شعرا ونثرا كالذي يقرؤه في الكتب . ودليله على وجود الشعر ذلك الديوان ، وما قاله له الأستاذ عن شوقي وحافظ . أما دليله على النثر فقطعة الإملاء التي جاءت لهم في الإمتحان ، وهي من تأليف هذا الأستاذ نفسه:
"انظر إلى الجمل ، تر رقبته طويلة ، و رأسه مستطيلة (كذا) خلقا على هذه الهيئة ليتزن بها جسمه " ... و هو نثر من ابلغ النثر ! وهو من صنع انسان معاصر!

ثم لقد سمع ان هذا الرجل الذي يدرس في دار العلوم حين يحضر في العطلة الصيفية يخطب في المساجد خطبا من تأليفه ، لا يستقيها من كتاب . على انه كان متشككا في هذه الواقعة بالرغم من حلف بعض أقرباء هذا الرجل على صحة هذه المعجزة ، وانهم رأوه " ينشىء من باله " ولا ينقل من كتاب!

---

(1)تغير هذا كله أصبحت الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية والكتب الأدبية تصل إلى القرية و"بيت - "ربما يقصد هنا : بين .. الضبح -ابنائها عدد ينظم الشعر ويكتب بالصحف.

* * *

وحين نفخ في بوق الثروة المصرية الكبرى ، وقف هذا الأستاذ أمام صفوف التلاميذ والقى خطبة وطنية نارية ، وقال لهم : ان المدرسة ستغلق الى اجل غير مسمى ، لأنه هو وزملاؤه ذاهبون للعمل في الثروة فهذا واجب كل انسان ! ووقعت المعجزة التي كان يتشكك فيها تارة ، ويؤمن بها تارة : وقعت المعجزة على يده هو ، فانطلق في حماسة الثروة وفورتها ، يكتب هو الخطب و يضمنها أبياتا من الشعر – يحسبها موزونة وهي متهالكة – ويلقيها في المجامع و المساجد حيث نفخت الثروة المقدسة في الجميع ، فصاروا يستمعون لكل هاتف بالثروة ، ولو كان طفلا صغيرا مثله لم يكد يتجاوز العاشرة!

لقد كان الاسم المقدس الجديد .. هو اسم سعد زغلول...

قانون اللصوص

استطاع الصبي ان يقاوم في نفسه أسطورة العفاريت ، و أن يسير في منعرجات القرية آمنا أو شبه آمن ولكن لم يستطع ان يغالب الفزع الذي كان يستولي على نفسه عندما يلتقي وجها لوجه بذلك المخلوق المقيت .. المسمى حرحوراً!

و مع ان حرحورا هذا كان يهش له إذا مر بمنزله ذاهبا إلى بيت جده ، ومع ان امرأته التي كانت تجلس دائما داخل الباب المفتوح وترقب الرائحين و الغادين ، بنما زوجها يجلس على " المصطبة " خارج الدار وبيده مغزله غالبا أو نبوته في بعض الأحيان ، مع ان امرأته هذه انت توصوص له بعينيها وتبتسم وتدعوه إليها فانه ظل يفزع من حرحور ، وظل يمقت زوجته حتى بعد ان كبر قليلا وصار يستطيع التفكير.

كان حرحور هذا لصا ، ولكنه لم يكن اللص الوحيد في القرية الا انه دون من يسمع عنهم جميعا كان يسبب له الفزع الذي يتحول بسرعة في نفسه إلى مقت ، حتى لـيود ان يقابل الشيطان ولا يقابل هذا الرجل بالليل و النهار . لم تكن امرأة حرحور من القرية ، بل كان أصلها " غجرية " تعشقته في شبابه " فحازها " كما يعبر اهل القرية عن العشيقات ، ثم تزوجها . تعشقه لأنه كان فاتكا من الفتاك " ولد الليل " كما يسمون اللصوص الأشقياء ، اللذين لا يتورعون عن القتل ، بل الذين يتخذونه إلهية يتلهون بها في مغامراتهم الكثيرة .

ثم ولدت له ثلاث بنات ، فنشأن جميعا كأمهن . وطارت لهن شهرة خاصة فأصبح البيت مصدر مفزع للأمهات اللواتي يرجون أبناءهن في سن الشباب ، وللزوجات اللاتي يختطف منهن أزواجهن هذا البيت المقيت!

وكان له هو أخ غير شقيق يكبره بجيل كامل ، ولكنه كان شابا وكان له بهذا البيت صلة ، وكانت الأسرة كلها تهمس بهذه الصلة في خوف و ذعر ، والطفل يسمع هذا منذ نشأته ، و لا يعرف حقيقة الأمر ، إنما يخيل له ان هذا البيت يخطف الشبان حقيقة فلا يخرجون منه أبدا . ولما كان يحب أخاه هذا ، فقد كان دائم الخشية عليه من ذلك الوكر اللعين ! ثم عرف ، فلم تزده المعرفة الا مقتا إلى جانب الفزع و الخوف الأصليين .. وهكذا ظل يتحاشى المرور بالوكر المخيف .. حتى غادر القرية في سن المراهقة .. بل انه ليحس شعورا غامضا كلما مر بهذا البيت حتى الآن!

* * *

لم يكن حرحور وحده في القرية .. فاللصوصية في الريف حرفة معترف بها في اغلب الأحيان ! حرفة لها أصولها وتقاليدها بل لها قوانينها المعلومة للجميع .
ثم هي المجال المفتوح للشبان من كل طبقة – حتى أبناء الأثرياء اللذين لا يقال انهم يسرقون ليعيشوا – إنما هي فتوة يدعونها " فتوَنَة " يمارسها الشاب في أول صباه تصريفا للطاقة المختزنة في بدنه ، والتي لا يجد لها تصريفا الا في هذا النشاط الليلي المرذول.

فكثير من هؤلاء يلتحقون بمناسر اللصوص – أولا الليل . الفلاتية . الرّجالة – إذ تشوقه المغامرات التي يسمع عنها ، والتي لا يجد من الوسط استنكارا لها ، بل ربما وجد الإعجاب في موضع الاستنكار (ولعل هذه بقية تقاليد الأعراب التي اندست في البيئة المصرية والتي تعد الفتك و السلب بطوله وشجاعة.(
وميزة هؤلاء الفتيان انهم لا يقاسمون في الكسب ، فما خرجوا ليسرقوا ، ولكن ليغامروا ، فإذا وقع للمنسر شيء ، فنصيبهم منه متروك للمنسر ، أو لمن منعه مانع قاهر من أفراده عن المشاركة ، كما لو كان سجينا ، أو مصابا في حادث سابق ، فان نصيبه يظل يؤدى لأهله الذين يعود لهم ، حتى يعود إلى مزاولة عمله الشريف.

ذلك أحد قوانين اللصوص .. ومنها ان " الرجال للرجال " وتفسير هذا النص لا يسطى على منزل لا رجال فيه ، أو فيه رجال ضعفاء عجزة .. واللص الذي يسطو عل بيت أرملة أو

ضعيف ، هو اللص " النتن " الذي يحتقره رفاقه وأهل القرة جميعا بينما كبار اللصوص الذي يسطون على بيوت الأقوياء و الأثرياء محل احترام من الجميع ، فوق انهم موضع الرهبة من الجميع!

ومن قوانين اللصوص ، ان تقسم القرية اقساما ، كل قسم من اختصاص منسر أو فرد ، فلا يجوز لمنسر آخر ان يعتدي على اختصاص زميله ، والا وقع الدم ردا للإهانة، ومحوا للعار الذي يتسامع به الجميع ، فلا يعود للمنسر أو اللص الكبير قيمة في البلد ولا في البلاد المجاورة .

وأحيانا يكون للص أو للمنسر إتاوة مفروضة على بعض الناس في نظير الحماية التامة من السرقات . فمن اعتدى من الآخرين على هذا الذي يتمتع بالحماية ، فقد اعتدى على هذه الحماية واصحابها ولا بد ان يرد المسروق بلا " حلاوة " أو يراق الدم صيانة للشرف الرفيع!

أما هذه الحلاوة فأمرها عجيب:

تقع السرقة في بيت أوحقل ، وتسرق المواشي أو عدد الآلات الارتوازية التي تروي الأرض في غير الفيضان .

وفي تسعين في المائة من هذه السرقات يكون لدى عمدة القرية خبر سابق بها ، شأنها شأن حوادث القتل الكثيرة ، ويكون له جعل معلوم في كل ما يسرق في نظير الحماية التي يبسطها على الفاعلين لو ابلغ الخبر الى بوليس المركز . وقلما يوجد الرجل الغر الذي يبلغ أمر السرقة إلى المركز . فيضيع عليه ما سرق منه إلى الأبد.

إنما الطريقة المتعارفة ان يصبح الصباح ، فإذا القرية كلها تعلم أن بيت فلان أو حقله قد سرق .. سرقة فلان من البلد أو من لصوص البلاد المجاورة ، وكلهم معروفون . ولكل منسر " قعيدة " (أي رجل قاعد يتولى تصريف ما يسرقون دون ان يشترك معهم في المغامرة ، وله نصيب معلوم) .. يذهب صاحب المسروق إلى هذا القعيدة فيسأله : الشيء عندك ؟ فان كان عند أجاب بالإيجاب آمنا مطمئنا . وان لم يكن عنده صارح صاحب الشيء بأنه عند فلان – قعيدة آخر – أو ان " الشيء فرط فرطه " أي هلك نهائيا ولا سبيل إليه بعد .. فكثيرا ما يخشى اللصوص ان يضبطوا فيذبحوا الماشية ويبيعوها لحما ، أو يبيعو المسروق لمنسر آخر في جهة بعيدة يتولى أمره ، إذا اتضح ان المجال ضيق لإخفائه قريبا..

فأما إذا قال القعيدة ان " الشيء " عنده أو في دائرة اختصاصه فتبدأ المساومة على " الحلاوة " ، أي الجعل الذي يؤديه صاحب الشيء ليرد إليه ماسرق منه ، وهو في الغالب يساوي نصف الثمن ، وتبدأ المساواة بأن يذكر القعيدة الرقم الملطوب ، فيرد صاحب الشيء متظلما من قسوة الفرض ، وربما ادخل في هذا التظلم انه رجل فقير ، وان حاله تستدعي استعمال الرأفة

وغالبا ما تؤثر المساومة ،فتنزل(١) الحلاوة قليلا .. فإذا أفلح كان بها .. وإذا لم يفلح انصرف وبعث " بواسطة " يساوم القعيدة ، فقد يستطيع ان " يهز " الحلاوة , أي ينقصها ، وتكون حجة القعيدة دائما ان الأمر ليس أمره ، إنما هو " واسطة خير " و يكون الرد دائما " لا يا أبا فلان ، إنما أنت الكل في الكل ونحن عارفون " إلى أمثال هذه العبارات التي تنتهي دائما بأداء الجعل ورد المسروق ، رده بكل تأكيد ، فالشرف – أي والله الشرف – يقضي بهذا في قانون اللصوص.

وإذا رد المسروق بعد أداء الحلاوة أو الحلوان ، فان قانون اللصوص يقضي ان يكون هذا الذي رد في حماية من السرقة كرة أخرى ، فالشرف يأبى سرقة الشيء الواحد مرتين ! وتارة تكون هذه الحماية قاصرة وتارة تكون شاملة .
فأما الأولى فمعناها الا يعود المنسر أو اللص إلى سرقة الشيء المردود .
واما الثانية فمعناها انه يحميه من كل سارق آخر ، ويعد الاعتداء عليه اعتداء على شرفه!

* * *

فأما إذا خطر لصاحب الشيء ان يسلك الطرق الأخرى القانونية ، فيبلغ العمدة وهذا بدوره لا بد ان يبلغ المركز – لأنه هو الآخر رجل شريف ! ،فقد انتهى الأمر ، وضاعت السريقة ، وتهيأ صاحبها لسرقة أخرى لا يقيه منها أحد .. اللهم الا ان يصادف يقظة من أحد أصحاب الدار ، أو ذمة خفير يتقي الله .. و هؤلاء قليلون!

---

(1)في الأصل كتبت بنسخة الكتاب هكذا : تنزل ، وتم تعديلها بإجتهاد شخصي يوافق سير الحدث (الضبح. (

* * *

و السطو على البيوت أو الحقول لا يقع دائما للسرقة ، بل قد يقع للانتقام . يهجم الشقي على البيت فيبقر بطون الماشية أو يمزق أحشائها " بسيخ " طويل ملوث بمادة سامة ، أو غير ملوث ، انتقاما من صاحبها لا ليسرقها . ويهجم لتحطيم آلات الساقية أو إحراقها أو إحراق الآلة الارتوازية أو الجرن ، أو الحضيرة على سبيل الانتقام.

وفي هذه الحالات لا مجال " للحلاوة " انما هو انتقام بانتقام .. وهذا هو الذي يقع غالبا ، فأما ان يرد الجميل إلى بيت اللص وحقله وماشيته ! – ومعظم اللصوص لهم حقول وماشية ولهم بيت طبعا في القرية – و اما ان يترصد له لقتله بوسائل شتى . وفي النادر القليل تبلغ الحادثة للمركز للتحقيق ، فتحضر " النيابة " للمعاينة ويحضر معها الطبيب الشرعي عندما يقتضي الأمر . وتهتز القرية اهتزازا لحضور الحكام .. ولكن قلما يؤدي هذا إلى شيء، لأن القرائن غالبا مفقودة ...
اما خوفا من الفاعلين ، واما بقاء عليهم ليتولى أصحاب الشأن تسوية حسابهم معهم على انفراد ، كي لا يكونوا اعجز من الثأر لأنفسهم ، فما يلجأ إلى الحكومة الا العجزة و الضعفاء.

ومثل هذا يقع في حوادث القتل للثأر .. تلك الحوادث التي تتكرر دائما ، وتظل نارها مؤرثة جيلا بعد جيل ، وقد يقتل الرجل وله طفل صغير واحد ، فما تزال أمه ، وما يزال الناس في القرية يقصون على مسامعه حديث أبيه القتيل ، حتى يتهيأ للثأر بمجرد ان يشتد ساعده ، وحينئذ فقط تقام للقتيل جنازة ، ويقبل أهله العزاء ، وإلا بقي الأهل معيرين في القرية . لا يرتفع لهم رأس قبل الأخذ بالثأر.

ويصادف غالبا الا تقع جرائم القتل في القرية ، الا و العمدة غائب عنها قبيل وقوع الحادث بأيام .
ويؤول الناس هذه المصادفات ، بأن في الأمر سرا معلوما .. ففي كل مرة يكون العمدة غير مسؤول عن الجريمة ، ولا عن جمع القرائن و الشهادات ، لأنه لم يكن حاضرها من قبل ومن بعد بأيام!

* * *

حادثتان من الحوادث الرهيبة لا يزالان محفورين في ذاكرة الصبي وخياله :
فأما أولهما ، فذلك يوم استيقظت عمته و زوجها وأبناؤها ، فإذا بهائمهم جميعا اما مبقورة البطون واما ممزقة الأحشاء واما مسمومة بمادة كاوية دست في الأمعاء..
في هذه الحادثة كانت تتجلى القسوة المقيتة ، فهذه العجماوات كان يراها تتلوى من الألم القاتل ، ولا ذنب لها الا ان شقيا لئيما أراد أن ينتقم من أصحابها بهذا الإنتقام الخسيس!
وحضرت النيابة وطبيب بيطري فيما يذكر ، حاول ان ينقذ هذه الحيوانات البائسة بكل ما يستطيع ، فاخفق الا في عجلة بقر صغيرة غسل لها أمعاءها من السم فعاشت ، بينما نفق سائر الحيوان بعد صيحات من الألم والتلوي كانت تسيل الدموع من أعين الآدميين.
وفي هذه المرة لم يكن " الحكيم " مصدر رعب و فزع ، انما أحس الناس انه رسول رحمة حتى للحيوان!

اما الحادث الثاني فلم يشهده ، ولكنه سمع قصته تروى عشرات المرات .. كان حديث القرية كلها نساء و رجالا و اطفالا . وكان بدنه يقشعر منه.
ولكنه يستعيد القصة مرة و مرة وخياله يتابع مناظرها في فزع مرغوب!

ذلك حادث ثلاثة من الشبان كان أحدهما قد تزوج ابنة عمه ، ثم أراد هذا العم ان يطلقها منه فأبى ، فرفع عليه دعوى في المحكمة الشرعية من تلك الدعاوي الكيدية..
و في يوم من أيام الجلسات كان هذا الشاب ذاهبا إلى المحكمة – في البندر – ومعه شقيقاه ، وبين القرية و البندر تنبسط الحقول الخضراء ، و يصبح الطريق الضيق الذي يقطعه السالكون على ظهور الدواب خطا دقيقا بين النباتات العالية ، لا تبين السائر فيه الا من بعد قليل.

بكر الأخوة الثلاثة لأنهم كانوا فقراء لا دواب لهم ، فهم يقطعون الطريق على أقدامهم من القرية إلى المدينة ، ويبلغ طوله نحو عشرة كيلومترات ، فلابد لهم من التبكير قبل راكبي الدواب للوصول في الميعاد .. وهذا الميعاد هو مطلع الشمس ، حيث يذهبون إلى المحكمة، ولما تفتح أبوابها بعد ، فيجلسون أمامها إلى ان يؤذن لهم بالدخول ، وذلك كله رهبة من المحكمة .. فالأسلم ان يكونوا هناك قبل موعد الجلسة بساعات!

وعرف العم الفاجر هذا فبكر قبلهم ومعه اثنان من الأشقياء استأجرهما لهذا الغرض مسلحين ، فكمنوا للأشقاء الثلاثة في مكان منقطع من الطريق ، وهم في مأمن من المارة الراكبين الذين

يصلون متأخرين.
وعند مرور الاخوة بادر الشقيان فأغمدا خناجرهما في بطني اثنين منهما فخرا صريعين ، وتنبه الثالث ففر ، والثلاثة يتبعونه ، وهو يصيح مذعورا فلا يلبه أحد في الحقول النائمة ، حتى أمسكوا به اخيرا و دخلوا به حقل الفول النامي و هو يقارب قامة الرجل ، وهناك جروا الأخوين الجريحين بعيدا عن طريق المارة فقضوا عليهما القضاء الأخير ، و الأخ الثالث ينظر ولا يستطيع الصياح.

ثم جاء دوره . فإذا هو يستعطف عمه الوحش بما يلين الحديد ، يقول له :
لم تقتلني يا عمي ؟ ما ذنبي الذي صنعته معك ؟ اما يكفي أخي و أخي ؟ لقد قتلت غريمك فأطلقني ، ان أمي وحيدة وأنا عائلها بعد أخويّ هي و الطفل الصغير الذي خلفه أخوك ، اعتقني لوجه الله ، ولك علي الصمت عن كل ما حدث.
اقسم لك!

ولكن العم الفاتك لم يسمع لهذا كله ، وخاف ان هو أطلقه ان ينم عليه وعلى شريكيه..
وقيل : ان هذا التوسل ظل ينبعث من الشقيق الثالث نصف ساعة والعم لا يلين .. ثم .. أجهز الشقيان على الثالث المسكين..
فعل المجرمون فعلتهم وانصرفوا .. وبقيت الجثث الثلا لا يدري عنها احد شيئا ، حتى انقضى اليوم كله ولم يعد الأخوة إلى أمهم المنتظرة ، واصبح الصباح وأمسى المساء يوما ثانيا وهي تنتظر على أحر من الجمر .. وفي اليوم الثالث انبعثت الرائحة وشاعت الاشاعات ، وظلت تنتقل وتنتقل ، حتى تصل إلى العم الشقي فتهبط على وجهه المقيت..

ولم تغفل عين الله عن المجرمين ، فاهتدى إليهم التحقيق .. وقيل ان وكيل النيابة المحقق كان ينسى مهمته في بعض الأحيان فتأخذه الحمية ، حتى لتمنى لو ان الأخ الرابع هو صبي قد انتهز الفرصة أمام المحقق فهجم على العم المتوحش فأرداه ، ليثبت في تحقيقه انه ارتكب ما ارتكب في حالة جنونية ، لأن جثث أخوته الثلاثة مبقورة البطون ! ممزقة الأحشاء و أمامه المجرم يذكره بالجريمة الشنعاء!

ولكن الوليد كان اعجز من هذه المحاولة ، ولعل خيال القرية هو الذي صور لها وكيل النيابة في هذه الصورة ، بل لعل وكيل النيابة كان كما هو صورة خيال القرية إزاء الجريمة الوحشية الفظيعة ، فلقد ظل هو كلما سمع القصة يتمنى هذه الأمنية . يتمنى لو شحذ الصبي الرابع مديته فبقر بها بطن العم المتوحش..

ومع انه كان يعلم ان ذلك لم يقع ولن يقع أبدا ، فان خياله كان يتم القصة دائما بهذه الخاتمة المتمناة.!

جمع الأسلحة

صحت القرية مروعة على صهيل الخيل ، وقعقعة السلاح ، وخطوات الجند الثقيلة ، يأخذون مشارفها جميعا إلى الحقول ، ويجوسون خلالها في جلبة و ضوضاء على غير عادة لها من زيارة الجند في مثل هذا العديد وذلك الضجيج.
وكان أول من كشف الخبر أولئك الذين تقتضيهم أعمالهم ان ينهضوا مع الفجر مبكرين ليغادروا القرية جميعا ،فأوثقوهم بالحبال و السلاسل ، وجعلوهم عندهم رهينة حتى لا يعودوا فينبئوا القرية النبأ ، ويفسدوا التدبير الذي وضعته القوة الهاجمة على الناس وهم نيام.

ونفذت الخطة نفسها مع خفراء المشارف ، فأديرت أيديهم إلى ظهورهم ، وكممت أفواههم بحيث لا يستطيعون الكلام ولا الصياح ، ثم اقتيد الجميع في عجلة إلى دوارالعمدة الذي أتوقظ في البكور ، و حجز في غرفة من غرف دواره ، ريثما يجتمع اليه مشايخ القرية الخمسة الذين جاء بهم العسكر من بيوتهم ، فصنع بهم هناك ما صنع بالخفراء..

وكانت القرية كلها قد استيقظت مروّعة ، لأن صهيل الخيل وقعقعة السلاح ، والهمسات الوجلة التي أخذت تتدسس إلى كل بيت و درب ، قد فزعت الناس ، وملأت قلوبهم رعبا . ماذا ؟ ماذا ؟ انها حملة لجمع السلاح ! حملة من مائتي جندي يقودها ضابط تعهد للسلطات بجمع السلاح من قرى المديرية جميعا ، واختار هذه الطريقة المروعة ليبدأ بها عمله ، فلم تعلم القرية ماذا يبغي ، ولا حتى العمدة و المشايخ ، الا بعد ان صار المقبوض عليهم بالعشرات ومن بينهم مشايخ البلد الخمسة ، وكلهم مكتوفوا الأيدي بالحبال ، تتلقاهم الأيدي بالصفع ، و الأرجل بالركل ، دون ان يعلموا شيئا عن حقيقة ما يراد بهم .. سوى ان الحكومة هنا ، والحكومة تصنع هذا و سواه .. فالذين عاصروا الحكم التركي لا يزال بعضهم يعيش.

* * *

كانت السلطات قد أصدرت أمرا عسكريا بجمع السلاح ، وعهدت في تنفيذه إلى رجال الإدارة ، وهؤلاء عهدوا بتنفيذه إلى عمد البلاد كالمعتاد ،فاجتمع بذلك عدد من قطع الأسلحة كالذي يجتمع كلما صدر أمر من هذا النوع ، وهو عادة لا يساوي الا نسبة صغيرة من الموجود في أيدي القرويين .

ولكي ندرك حقيقة الحالة يجب ان نعلم ان السلاح في القرية يملكه فريقان : الفريق الأول هم أصحاب الحقول و المواشي و خفراؤهم الخصوصيون الذين يسهرون على اموالهم من اللصوص ، و الفريق الثاني هم هؤلاء اللصوص الكثيرون الذي يجدون هذه الحرفة – على ما فيها من مخاطر – اضمن للعيش من العمل المرهق في الحقول.
ونقص السلاح في ايدي اصحاب الحقول و المواشي ومعناه زيادة في ارتكاب الجرائم ، والاعتداء على بيوتهم وحقولهم و مواشيهم ، اما نقص السلاح في أيدي اللصوص فمعناه تجريدهم من بعض وسائل الرزق التي اختاروها لأنفسهم في الحياة!

كلا الفريقين إذن حريص على اقتناء السلاح . ولما كان العمدة يخشى أفراد الفريق الثاني تارة ، وتتفق مصلحته الخاصة مع وجودهم تارة ، فان جمع السلاح في كل مرة كان ينصب على الفريق الأول بكل تأكيد.

ولكن الأمور لا تجري في القرية بالعنف ، ولا حسب الأوامر الرسمية ، إنما تجري حسب المواضعات العرفية ، فالعمدة يعلم بالضبط كم قطعة من السلاح في كل بيت ، وما نوع كل قطعة ، فإذا طلبت الحكومة جمع السلاح ، اتفق مع بعض من يملكونه على تقديم القطع القديمة منه ، ولكي لا تكون المسألة مكشوفة ، فان بعض القطع الحديثة تزين المقدار المجموع ، و يورد للسلطات كآخر ما استطاع العمدة ان يحصل عليه.

و طبيعي ان هذا كله لا يتم بالمجان ، فلكل شيء ثمن ، ولكل خدمة مقابل في الريف ، فإذا خطر للسلطات ان ترسل بقوة وعلى رأسها ضابط لتولي هذا العمل ، فالمرجع هو العمدة ، وبإشارته يتم كل شيء . وغداء فخم على " اوزي " وبعض أزواج من الديكة ، والدجاج والحمام ، كفيل مع الوسائل الأخرى بتسوية كل شيء و اتمام المحاضر على خير ما يرام!

اما هذه الطريقة المبتكرة ، فقد تفتقت عنها عبقرية ذلك الضابط ، الذي تعهد للسطات بجمع

السلاح جمعا حقيقيا من جميع قرى المديرية ، فاتخذ هذا الأسلوب البارع المفاجئ ، الذي روعت له القرية كلها في جنح الظلام.

ونعود إلى هؤلاء المشايخ الخمسة الذين أديرت أيديهم إلى ظهورهم ، ألصقت وجوههم بالحائط ، دون ان يعلموا شيئا مما يطلب إليهم من مهام الحكومة التي اعتادوا ان يتلقوها بين الحين و الحين ، كجمع أنفار السخرة لإصلاح الجسور ، ولتنقية الدودة من المزارع الكبيرة ، أو قتل الجراد فيها ، دون ان ينالوا على ذلك أجرا ، لأن أجورهم – ان حسبت لهم أجور – تذهب إلى جيوب أخرى ، وتؤخذ بصماتهم على أوراق لا يدرون ماهي ، ثم ينصرفون وبحسبهم انهم قد انصرفوا ناجين ، بعد ان يكونوا قد كلفوا استحضار طعامهم معهم من بيوتهم طوال مدة السخرة التي تنقص او تزيد!

لم يفصح لهم أحد عن هذه المهمة المطلوبة منهم في هذه المرة ، و لكن أفصحت لهم السياط التي أخذت تلهب ظهورهم من ايدي الجنود ، عن ان اليوم ليس كالأيام ، وانما هو العذاب الأليم ، الذي لا يملكون له ردا وهم مسجونون!

ثم أخذ الرصاص يدوي فوق رؤوسهم هم و الخفراء الموثقون ، و الأهالي الذين اصطيدوا من مشارف القرية ومن طرقاتها حسبما اتفق حتى امتلأ بهم فناء الدوار!
هذا الرصاص للإرهاب ، وبلبلة الأفكار ، واتلاف الأعصاب .. وبينما هذا الفزع الأكبر يخيم عليهم ، ويكاد يفقدهم صوابهم ، امر كل من المشايخ ان يملي على " الشاويشية " أسماء مائتي رأس أسرة ، ممن يملكون سلاحا في البلدة ، وان يعين نوع قطع السلاح التي يملكونها!
وإذا كان قد بقي فيهم إلى الآن عقل أو ذاكرة ، فقد أخذ كل منهم يملي الأسماء . وكلما توقف برهة ليتذكر نزلت السياط على ظهره وجنبيه ، فارتفعت حرارة العد ، ومضى كالمجنون يملي الأسماء!
وانتهت العملية فإذا في يد كل جاويش بيان عن مائتي عائلة تحمل سلاحا ، وأمام كل اسم نوع القطع التي ملكها رأس هذه العائلة.

ولسنا في حاجة إلى ان نقول : كيف كانت هذه البيانات ، ولا مدى مطابقتها للواقع ، فالشيخ المصلوب المجلود المهدد بالموت من الرصاص المتطاير فوق رأسه ، لا يطلب إليه في هذه الحالة ان يتحرى شيئا .. ولكننا نستطيع ان نؤكد ان أحدا من كبار الأشقياء المرهوبين لم يرد اسمه في هذه القائمة ، وإذا كانت بعض الأسماء قد وردت فانما هي لصغار الأشقياء الذين لا عصبية لهم في البلد ولا نفوذ!

وانتهت هذه المرحلة ، ووقف المشايخ الخمسة يلهثون من التعب و الفزع و الألم .. اما العمدة فقد اشترى نفسه وكرامته من أول الأمر ، لقد كان حصيفا .. رأى العين الحمراء ، فسارع إلى وسيلة مضمونة لإرضاء الحكام ، هدته إليها تجربة طويلة ، وذكاء عملي ، ومقدرة على جميع الوسائل والاتجاهات ! ثم بدأت المرحلة الثانية ، فانطلق الخفراء مع الجنود و هم مكتوفو الأيدي ، يجوسون معهم خلال القرية ليدلوهم على البيوت وليدقوا الأبواب يطلبون رؤوس العائلات ــ ويصروا على استحضار أكبرهم سنا ، وكلما استحضروا منهم جماعة ذهبوا بهم إلى الدوار..

وهناك يصنع بهؤلاء ما صنع من قبل بالمشايخ و الخفراء قبل ان يسألوا شيئا وقبل ان يجيبوا ، حتى إذا اشبعوا ضربا و ترويعا وإهانة صرح لهم عما يطلب منهم من قطع السلاح حسب البيانات . فاما إذا صادف ان كانت القطع المطلوبة من أحدهم مطابقة لما عنده ، فقد أحس بالفرج وبادر بالإقرار ، وطلب ان يسمح له بإحضارها .. ولكنه لم يكن يجاب إلى طلبه ، انما يستدعى أحد أبنائه أو أحد افراد عائلته ، فيشاهده هكذا ، ثم يلقى هو الآخر بعض الصفعات و اللكمات ، ثم يتلقى الأمر منه ان يستحضر قطع السلاح المطلوبة ، فيخرج ركضا لاستحضارها ، حتى إذا تمت معاينتها وظهرت

مطابقاتها للبيانات المكتوبة ، افرج عن الرجل وابنه أو قريبه ، فخرجا لا يدريان النور من الظلام لشدة مالقيا من اللكم و الصفع ، ومن الفزع و الروع ، وانصرف أهله لعلاج جروحه و كدماته ، بالزيوت و المسكنات!

واما إذا صادف ان اختلفت البيانات عما عنده من السلاح ، او لم يكن لديهم سلاح أصلا ، فالويل له والثبور .. يعاد جلده ولكمه و صفعه مادام ينكر ، أو يقر بسلاح آخر غير السلاح المطلوب . و في الحالة الأخيرة كان يحضر السلاح الذي يملكه ، ثم يظل يطالب بقطع السلاح الأخرى التي أملاها الشيخ ، وهو في ذهول الروع وا لآلام!

عندئذ يضطر المسكين ان يعترف بما ليس عنده ، وان يطلب مهلة لإحضاره من مكمنه البعيد .. وفي هذه المهلة ينطلق أبناؤه وأقاربه يبحثون عن قطعة سلاح مطابقة للبيانات ، لشرائها حيث تكون ، فان لم جدوها في القرية ركبوا أسرع دوابهم للبحث عنها في القرى المجاورة ، فيسمح لهم الحراس بالخروج بحجة انهم ذاهبون لاستحضار سلاحهم المودع عند أقاربهم في هذه البلاد ، اطمئنانا إلى ان رأس الأسرة رهين لدى القوة ، وعذابه مرهون بالوقت الذي يقضونه غائبين.

وعندما يوفقون إلى القطعة المطلوبة ، يؤدون الثمن الذي يطلبه صاحبها مهما ارتفع . وكثيرون انتهزوا هذه الفرصة فبالغوا في اثمان القطع المطلوبة ، كما ان الكثيرين ايضا ظهرت أريحيتهم في إنقاذ المكروبين بأرخص الأسعار .

عندئذ يبتسم الضابط العبقري وهو يشاهد قطع السلاح المطلوبة تحضر بعد الإنكار ، ويرد ذلك إلى عبقريته الفذة التي أرشدته إلى اختيار أقوم طريق!

* * *

في نهاية اليوم كانت الأسلحة المجموعة تصنف أكواما أكواما فهذه بنادق ، وهذه غدارات ، وهذه مسدسات ، وهذه طبنجات ، وهذه سيوف ، وهذه سكاكين كبيرة ، وهذه بلط ، وهذه مزاريق وكل " ماركة " من هذه الأنواع مرتبة وحدها ، والضابط العظيم ينظر مرتاحا منتفشا كالديك إلى انتصاره الكاسح على أولئك القرويين الملاعين..

وكان في كل بيت من بيوت القرية مناحة صامتة . فهذا مشجوج الرأس ، وذلك مرضوض الأضلاع ، وذلك ملتهب الجلد وهذا ممزق الأشداق .. وكان نسوة و أطفال يغدون و يروحون بالزيوت وكمادات الماء الساخن و البارد يسعفون بها المصابين.

وكان كثيرون من أهل القرية قد باعوا مواشيهم وطعام أطفالهم ، وحلى نسائهم ليشتروا بها قطع السلاح التي قيل انها عندهم وهم لم يحملوا في حياتهم سلاحا.
لقد كان هؤلاء هم جماعة الفقراء الذين اكمل المشايخ بهم العدد و هم في مأمن من رد الجميل ، إذ لا قوة لهم كالأشقياء ، ولا جاه لهم كالأثرياء!!!

* * *

ويمر على هذه الحادثة اكثر من ربع قرن ! و الطفل لا يزال يذكرها كانها حادث الأمس القريب ، لقد فزع للهول كما فزع كل طفل وكل رجل وكل امرأة.
وفي أثناء هذه السنوات يسمع ان هذا الضابط الوحش قد رقي فصار في وقت من الأوقات وكيلا لمدير الأمن العام ، اعترافا بكفايته في صون الأمن وحفظ النظام فيكمن في نفسه شعور بالأسى الدفين.
ثم يسمع إشاعات بعد ذلك انه لاقى حتفه وهو يزاول شناعة من هذه الشناعات ، فيحس كأن كابوسا ثقيلا قد رفع عن صدره وتنفس الصعداء!

الحصاد

ثلاثة مواسم في العام كان وجه القرية يتغير فيها ، وكان يحيا في ابانها بنفس جديدة وحس
جديد ، هو وجميع أطفال القرية الذين ينتظرون هذه
المواسم من العام إلى العام:
موسم اللوق ، و موسم الحصاد ، و موسم جني القطن.
و الموسمان الثاني و الثالث معروفان لدى الجميع ، فاما الموسم الأول فلا يعرفه الا سكان
الأراضي التي تروى بالحياض ، تلك الأراضي التي تظل
مكشوفة طوال العام ، حتى يحين موعد الفيضان في سبتمبر و أكتوبر من كل عام ، فتطلق مياه
الفيضان ، التي تعم الأرض الزراعية جميعا ،
و تصبح
لجة يرتفع فيها الماء إلى متر ، ويصل في بعض المواضع إلى مترين أو اكثر .. عندئذ تصبح
القرى جزائر في وسط اللجة ، لايصل بعضها إلى
بعض
الا " في صغار المراكب وخفاف القوارب " كما يقول عمرو ابن العاص في رسالته التي كان
الصبي يحفظها في المدرسة الأولية ، ويجد مصداقها
فيما
تقع عليه عينه كل عام.
و الحق ان منظر اللجة من الجبل إلى الجبل منظر ساحر فريد فالوادي كله وعلى جانبيه التلان
اللذان يسميهما الأهالي جبلين يستحيل إلى لجة متصلة
ينفلت فيها النيل من عقاله . و يتخطى حواجز جسوره ، ليعانق الأرض الحبيبة ، التي يزورها
مرة واحدة في العام.
فإذا آن موعد الوداع تناقص الفيضان يوما بعد يوم ، و نظر الناس إلى النيل نظرة المودع
الآسف للوداع ، حتى لقد سمع الطفل أحد القرويين السذج
يتأمل النيل الهابط في حسرة ، و قد خمد الموج العالي في اللجة ، وانساب وانيا حسيرا ثم
يقول : " مسكين خلاص همد " وكان الرجل يقولها
وكأنما
يتحدث عن إنسان حي تربطه به آصرة القربى ، وصلة العائلة ، و مودة الأصدقاء!
و تصبح القرية ذات يوم فإذا اللجة منحسرة ، وإذا الأرض السوداء مكشوفة ، وفيها تلك

الطبقة البنية التي تنبت الذهب في الوادي ، على مساحات
شاسعة ،
وإذا الأرض تطلب الحب ، لتنبت للناس و للماشية طعام العام.
فإذا خرج الناس يغرسون ارجلهم في الطين ، و يبذرون الحب الذي يحملونه على أكتافهم ، ثم
يغطونه بطبقة من الطين يجرفونها بمسحاة تسمى
"اللــــــــوح " .. فتلك هي عملية " اللوق " أحد المواسم الثلاثة في قرى الحياض.

* * *

كان زمام أطيان القرية اكبر من عدد الأيدي العاملة فيها ، فهي قرية ثرية بالقياس إلى القرى
المجاورة .. ولم تكن الملكيات الكبيرة التي تشبه
الإقطاع
معهودة فيها ، فأكبر ملكية زراعية لم تكن تتجاوز المائتي فدان ، وقل ان يكون في القرية فرد
أو بيت لا يملك قطعة ارض صغيرة أو كبيرة..
توزيع الأرض الزراعية على هذا النحو كان يقرب الفوارق بين الطبقات ، و يخلق حالة من
الأنفة الشخصية في صلات الناس بعضهم ببعض ، فلم
يكن
هناك خدم بالمعنى المعروف في المدينة أو بعض الضياع و التفاتيش ، حيث تهبط مرتبة الخادم
إلى مرتبة الرقيق .. كان الخادم في القرية إنسانا
فقيرا
محتاجا إلى العمل ، ولكنه لا ينطق كلمة " سيدي " المقيتة ، بل يستعيض عنها كلمة " عمي "
لسيد البيت و " امرأة عمي " لسيدته .. ثم هو يعمل
في
الدار أو في حقل أو في تربية المواشي طوال اليوم ، فإذا جن الليل عاد إلى بيته أهله كما يعود
أي سيد..
وكان لكل أسرة بيت مملوك ، صغير أو كبير ، ولكنه بيت ، أما الأكواخ الطينية فلم تكن معروفة
في القرية .. كان اكثر من نصف بيوتها مبنيا بالطوب الأحمر ، و سائرها من اللبن ، وكان
معظم البيوت تتألف من طابقين أو ثلاثة ، و بعضها يصل إلى (الربعة)(١) ، وندر ان يتألف

المنول من طابق واحد حتى في بيوت الفقراء.
اما مستوى المعيشة فهو بالقياس إلى جهات أخرى كثيرة مستوى معقول – تبعا لحسن توزيع الملكية الزراعية إلى حد ما – فافقر بيت يذوق اللحم كل
أسبوعين ، وغالبا كل أسبوع ، ومن لا يستطيع ان يشتري اللحم اشترى الأحشاء من الكروش إلى الأرجل إلى الرؤوس إلى القلوب إلى الكبد وما إليها
-وهذه رخيصة جدا بالقياس إلى ثمن لحم البدن – و السمن كذلك معروف في البيوت جميعا ، يخلطه بعضهم بالدهن كما يخلطه القليل النادر من
المسيحيين في القرية – بالزيت ولكنه يستخدم في الطعام على العموم.
و الفاكهة من البطيخ و الشمام و البلح و الرمان و النبق و القثاء و الخيار و الجوافة و التفاح البلدي و القصب .. تدخل البيوت جميعا مع اختلاف في
المقادير.
وهكذا كانت القرية معروفة بالثراء كما عرفت بالرقي نظرا لبناء بيوتها ، ونظافة سكانها بالقياس إلى القرى المجاورة – وان تكن هذه النظافة حين
ينظر إليها بعين المدينة تبدو قذارة مزعجة – ولكن كل شيء نسبي في هذه الحياة.

* * *

كانت الأيدي العاملة في القرية إذن اقل من مرافق العمل فيها ، وبخاصة في هذه المواسم الثلاثة ، لذلك كان يفد إليها أفواج من " الغرب "
-جمع غريب – للعمل في مرافقها كل عام.
يفد هؤلاء الغرب من جهات قصية نائية : من قنا ومن اسوان .. من القرى الجرداء في هاتين المديريتين ، حيث يضيق الوادي ، ويزمه الجبلان في
عنف و قسوة ثم يستقل بتلك الأراضي الضيقة بضعة أفراد يملكون الضياع و التفاتيش ، ويدعون الآخرين للقحط و الجدب و الشقاء!

---

(1)هكذا في نسخة الكتاب ويبدو أن الأصح (أربعة) كما هو سياق النص .. الضبح

هؤلاء الغرب ، هم الذين كانوا يصورون للقرية و أهلها قيمة ثرائها و ثرائهم ، ومبلغ النعمة
التي انعم الله بها عليهم .. كانوا " غربـــــــا "
لا بموطنهم النازح ، و لكن بأشكالهم التي تختلف عن أشكال الناس في القرية ، و بملابسهم –
ان صح انها ملابس – و بلسانهم الذي نحرف انحرافا بينا ،
وبأغانيهم الحافلة بالشجن و الشجي .. وبكل ملابسات حياتهم التي كانت تحيلهم في نظر سكان
القرية " غربا " لا يربطهم بهم الا الدين .. اما القومية
و الجنس فقد انفرجت الشقة فيهما ، فهما جنسان مختلفان!
كانوا يفدون جماعات جماعات ، كل جماعة تسمى" كلّه " ، على رأس كل جماعة " ريس "
يقدمهم للعمل ، ويتفق على اجورهم ، و يلاحظ عملهم ،
ويأخذ في نظير هذا اجره كواحد منهم دون ان يعمل فيما يعملون.
وكان صاحبنا قد ألف " كلة " من هؤلاء ، ألف رئيسها بصفة خاصة ، كانت هذه الكلة تفد في
كل موسم إلى دارهم ، و يترواح عددها بين عشرة
وخمسة عشر .. هذه هي الكلة و الأساسية التي يعتمد عليها والده في زراعته ، ثم يضاف
إليها في أيام الزحمة بعض الكلات الطارئة للعمل بضعة
أيام ، ثم تنفرد هذه الكلة بالعمل طوال الموسم .. هي كلة البيت ، فقد انعقدت الأواصر بينه و
بينها .. رضيها ورضيته ، وصارت لها علاقة شبه
عائلية بالمنزل ومن فيه.
كانت أغاني هؤلاء الناس الشجية التي تقطر بالمرارة و الأسى في رجولة و تجمل ، تستجيش
نفس الصبي الصغير و أحاسيسه ، فيستمع إليها شبه
مسحور ، و تجيش في نفسه الصغيرة انفعالات لا يدريها و لا يحاول التعبير عنها .. ولكنه ابدا
يحن إليها ، و ينتظرها من العام للعام ، و يستكثر
من إنشادها و يستزيد ، ان صمت القوم من التعب و الاعياء .. وهم في كل مرة يجيبونه إلى ما
يطلب ، فهو ابن سيد البيت الصغير ، ثم هو صديقهم
فردا فردا ، و ريسهم بوجه خاص .. فكل مطالبهم من الدار و أهله تتم عن طريقه ، وانه ليصر
على ان يجاب لهم كل طلب ، و يجادل عن مطالبهم
حين يناقش فيها أحد ، و يشعر بالراحة العظمى ، و هو يحمل لهم ما يطلبون من الدار ، و
الدنيا لا تكاد تسعه من الفرح ، بلتبية مطالب أصدقائه
الكبار!
ثم كان هو سكرتيرهم الخاص – بعد ان ذهب إلى المدرسة و " فك الخط " واصبح قادرا على ان
يكتب لهم رسائلهم إلى بلدتهم النائية ، و يقرأ لهم ما

يرد إليهم من رسائل تحدثهم عن أبنائهم و أهليهم هناك.
وكان هذا مبعث صداقة جديدة ، فأسرارهم جميعها – وهي أسرار ساذجة محدودة – كانت مكشوفة له ، وكان موضع ثقتهم في استيداع هذه الأسرار
التي يطلع عليها في رسائلهم الذاهبة الآيبة ، ولعلهم كانوا يستريحون إلى طفولته البريئة ، وهم يودعونه هذه الأسرار.
كان العشرة أو الاثنا عشرة أو الخمسة عشر يشتركون في رسالة واحدة يرسلونها للشيخ " محمد أبوعليم" شيخ قرية الكلح الغربية و مأذونها أيضا..
كانت كل الأسماء غريبة على سمع الصبي ، ولا عجب فهم " غرب " وكل ما يتعلق بهم غريب!
كانوا يجمعون ما يريدون إرساله من النقود ، ويكلفون الصبي ان يكتب به بيانا : اسم كل منهم و أمامه المبلغ الذي يريد إرساله ، ثم يجمع الحسبة
ويشتري لهم بها حوالة بريد باسم الشيخ محمد ، ويكتب عن لسانهم إليه بتوزيع المبالغ حسب البيان على عائلاتهم هناك.
ولا يذكر ان المبلغ المتجمد قد تجاوز في مرة من المرات جنيهين!!!
كان أحدهم يرسل إلى أهله بالبريد الثمانية القروش و العشرة وعلى الأكثر العشرين .. و هو متهلل الوجه منطلق الأسارير ، وشاعر انه بعث إلى من
خلفهم هناك بما يسد العوز و يقيل العثرة ، ويمد في حبل الحياة!!
ومرة كان يخطر للصبي ان يتساءل : أهذا فقط ؟ وماذا تصنع هذه القروش ؟ فتجيبه من هؤلاء ابتسامة فيها التجمل لحالهم البائسة ، وفيها الهشاشة
لسذاجة البريئة .. ثم يجيبه واحد أو اكثر في لهجته الصعيدية الخاصة:
"يوه ، امال يا بوي ؟ عم تحسب كل الناس زيك وزي بيّك المرتاح " ؟ - أي أبيك الغني حيث يعبرون عن الغني بالراحة – وهو اصح تعبير – ولكنه
لم يكن يلمح في عيونهم ولا لهجتهم شيئا من الحسد ، ولا من الحقد ، لهذه الفوارق الهائلة التي يعبرون عنها في كلماتهم الساذجة!
اما نظام العمل و الأجور في القرية فكان على النحو التالي:
يتراوح الأجر اليومي للعامل بين القرشين ، و القرشين و النصف - حسب الغلاء و الرخاء ، وحسب الحاجة إلى الأيدي العاملة و قلتها أو كثرتها -
أي
حسب قانون العرض و الطلب – ولكن هذا الأجر كان خارجا عن المبيت و الطعام ، وبخاصة وجبة العشاء.
فاما الطعام فكان أصحاب الدار يزودون العمال به في المساء حتما ، وفي الوجبات الأخرى في بعض الأحيان ، وكانت وجبة العشاء تتألف غالبا من

ثريد اللحم و اللحم ، وهذا الثريد اما ان يصنع من المرقة البيضاء ، واما من المرقة المزودة بالبصل الناضج و الكشك مع الخبز ، فيكون طعاما دسما

مغذيا شهيا ، تتفاوت كمة الدسم فيه بتفاوت البيوت ، وكرمها أو بخلها في الضيافة ، فقد كانت القرية تعاملهم غالبا على انهم ضيوف غرباء .. والنبي

أوصى بالغريب ! وبعض البيوت كان يزود " الغريب " بالإفطار ، وبخاصة في موسم اللوق ، لأن العمل في الطين ، حيث تنغرز الأرجل إلى الركب،

وحيث يحمل الغريب كيلتين من الحب على كتفه ومع ذلك يمسح الطين باللوح ليغطي البذور طول النهار .. لأن العمل على هذا النوح يتعذر الا مع

طعام مغذ .. وهذا الإفطار يتألف غالبا من خبز القمح مع التمر و البصل .. أو من فطائر خاصة تسمى " المخمر " مصنوعة من دقيق القمح والسمن

واللبن بعد اختمار العجين .. وهو طعام اضافي مع الخبز و التمر .. ولم يكن هذا ليقع الا في بيوت الكرماء!

وكان صاحبنا يتعمد ان يصحو في الصباح الباكر ليحصل للغرب على اكبر كمية من هذا " المخمر " يدسها في حجرة و جيوبه ثم يذهب بها إليهم فوق نصيبهم الذي أخذوه.

اما وجبة الغداء فغالبا ما تكون على حساب العمال .. وهي مؤلفة غالبا من خبزهم الغليظ الجاف الذي حملوه معهم هذه المسافات الشاسعة في غرارات

الخيش ، أو في جلابيبهم القديمة التي ربطت أكمامها فصارت غرائر للزاد و المتاع ، وقل ان يكون هذا المتاع الا الزاد من ذلك الخبز الغليظ الجاف ،

من ذلك الخبز ، أو من الخبز الذي يشترونه من القرية مع البصل ، أو مع الملح وحده في اغلب الأحيان.

ومن أين يشترون الخبز من القرية ؟ ان بيع الخبز غير متعارف فيها ، بل هو عار اشد عار ، ان لكل عائلة بيتها ، وفي هذا البيت فرنها البلدي الخاص

..وهي تشتري الغلة – من الذرة غالبا – فتغربلها وتنقيها وتطحنها .. تغربلها بالغرابيل اليدوية الصغيرة ، تجتمع نسوة البيت مع من يتقدم لمساعدتهن

من الجارات ، فيأخذ فريق منهن في الغربلة حتى تنظف الغلة من الطين الغليظ والمواد الغريبة .. ويأخذ فريق منهن في التنقية وهي تنظيف الغلة

من الطين الصغير وبقية المواد التي لم يحجزها الغربال .. ويكون ذلك يوما مشهودا من أيام العائلة ، كل من في البيت يشتغل فيه فضلا عن مساعدة

الجيران . ثم تطحن .. ومن هذا الدقيق يصنع الخبز بإضافة شيء من دقيق الحلبة إليه ليتماسك وينال شيئا من الطعم الخاص المقبول .. فلا حاجة إذن

إلى سوق الخبز ، لأنه لا يشتري الخبز الا الغرباء ! وحتى هؤلاء لو طلبوه من البيوت لأعطي
لهم ، فليس عار بعد بيع الخبز و شرائه كما يصنعون في
البندر القريب ، الذي تلوك سيرته الألسن لأنه يبيع الخبز للناس!
ولكن إذا كان الخبز لا يباع في السوق ، فانه عملة معترف بها في هذه السوق !!! ليست العملة
في القرية هي البنكنوت ، ولا الأوراق المالية ، ولا
النقود الفضية و المعدنية فحسب ، انما هنالك أنواع أخرى من العملة في مقدمتها .. " البتاو "
و البتاو هو خبز الذرة الخالصة أو الذرة المخلوطة
بالقمح ، تمييزا له عن خبز القمح الخالص المسمى بالرغيف ، إلا ان يصنع على هيئة البتاو
في بعض الأحيان!
وإذا كان الأولاد في بيوت الفقراء وبعض الأوساط لا يتناولون نفقات يومية غالبا ، فليس معنى
هذا انهم لا ينفقون ، فهذا البتاو عملة صغيرة معترف
بها في السوق ، يسحب الطفل " البتاوة " و ينطلق بها إلى السويقة ، فيشتري بها عددا من "
طورات " البلح ، كما يشتري بها الرمانة أو كمية النبق ،
أو قطعة من عود القصب تمسة " دقلة " أو ماشاء من هذه الفاكهة الصغيرة ، كما ينطلق بها
إلى بائع الترمس و البليلة – أي القمح المبلول بالماء و الملح
-والبتاوة في جميع هذه الميادين عملة مسعرة ، يختلف سعرها هبوطا و صعودا حسب سعر
الغلال عامة ، وحسب حجمها ونسبة خلطها ، وجودة
صنعها كذلك و " لبتاوة " بعض البيوت شهرة خاصة في هذا كله ، كعملة بعض الدول
المضمونة ! فيكون لها اعتبارها وقيمتها في السوق ، ويتسابق
الباعة إلى حاملها ، و يجزونه عنها بكمية مغرية من سلعهم الرخيصة!
ولي س " البتاو " وحده هو العملة الإضافية في سوق القرية ، فهناك أنواع أخرى من العملة
غير الرسمية : هي الغلال ، والنخالة ، و " زبل " الدجاج
أو الحمام أي زرقه .. فهذه كلها يشترى بملء الجيب منها ، أو ملء طاقية الطفل ، أو ملء
إناء معين ، كميات من الفاكهة ومن البصل ومن الفجل ،
ومن كل شيء يعرض في السويقة أو في الدكاكين.
وليس الأطفال وحدهم هم الذين يتعاملون بهذه العملة بل الكبار أيضا .. فليست النقود في
الحقيقة الا عملة إضافية بالقياس إلى العملات السائدة في القرية ، ولا سيما في شراء الأشياء
الصغيرة!
من هذا الخبز الذي يتجمع عند الباعة يشتري " الغرب " طعامهم إذا أرادوا الشراء ، ولو قد
طلبوا الخبز من القرية لأعطتهم بلا ثمن كما أسلفنا ، ولكن
هذه شحاذة و تسول ، وهم لم يكونوا شحاذين ولا متسولين .. انما هم قوم أعزاء شرفاء..

* * *

ثم يقع الحادث الذي لن ينساه صاحبنا ما عاش.
كان بيته يقدم " للكلة " الطعام . وكانت والدته تقوم على إعداده بنفسها كما تقوم على طعام
الأسرة ، رغبة في الثواب من الله حين تصنع بيدها طعام
الغرباء .. وكان والده يشرف بنفسه على شراء اللحم الذي يقدم إليهم من دكان القصاب ،
ويشتريه من نفس النوع الذي يختاره للعائلة ، لأن القصابين
كانوا ينتهزون هذه الفرصة ليذبحوا الذبائح الهزيلة و الشائخة ، ويرخصون ثمنها قليلا ، فيقبل
عليها الكثيرون ممن يريدون التوفير .. والغرب لا
يجدون في اي صنف من اللحم ما يعاب.
وكانت المقادير التي تقدم لهذه الكلة مقادير وافية من جميع أنواع الطعام من الخبز إلى اللحم
إلى الأدام.
لذلك كانت مفاجأة لوالده حينما جاء رئيس الكلة يرجوه في ان يسمح لهم بتناول الطعام على
حسابهم في المساء ، في نظير ان تزاد أجورهم نصف
قرش مقابل العشاء.
نصف قرش ؟ أهذا الطعام كله لا يساوي في نظرهم نصف قرش ؟ وبدا عليه الغضب لسوء
تقديرهم لما يقدم لهم من الإكرام ولكن رئيس الكلة بادر
بإزالة ما علق بنفسه ، فافهمه ان النقود اصلح لهم ولعائلاتهم ، اما الطعام فكل أكل طعام!
ويبدو ان والده كان لايزال مغضبا ، فتك مناقشته وقبل العرض بلا كلام ، وظلوا أربعة أيام
يأكلون في خارج البيت ، ثم يأوون إليه للنوم ، دون ان
يعرف أهل البيت عن حياتهم المعيشية شيئا .. وفي اليوم الخامس كانوا قد انصرفوا مبكرين
لانتهاء عملهم في أحد الحقول ، استعدادا للبدء في حقل
جديد عند الصبح.
في هذا اليوم سأل رئيس الكلة أهل البيت عن طريق صديقهم الصبي ان يعيروهم إناء نحاسيا
للطبخ " حلة " فأجيب طلبهم ، ثم استأذنوا في استخدام
"كانون " البيت بالدور الأسفل فاذن لهم (وهذا الكانون هو صفان من اللبن يسدان من ناحية
بصف ثالث وتبقى الناحية الأخرى مفتوحة ، و يوضع
الإناء فوق الأرجل الثلاث بينما يزج بالوقود من الناحية المفتوحة تشعل فيه النار حتى ينضج
الطعام أو يسخن الماء .. ذلك ان الفحم نادر الاستعمال ، و مواقد البترول قليلة في القرية ،

والاعتقاد كذلك ان الطعام الذي ينضج ببطء على وقود " الجلة " و أعواد الذرة وحطب القطن
يكون أجود من الطعام
الذي ينضج سريعا على موقد البترول.)
و أوقد القوم النار ووضعوا ماء في الإناء ، فهم يريدون ان يطبخوا .. ثم طلبوا شيئا من
الملوخية الجافة وقليلا من الملح ، فأجيبوا..
ولم يخامر الشك أهل البيت في ان القوم قد استحضروا كمية من اللحم وكمية من السمن وقليلا
من البصل أو الثوم .. وإلا لأعاروهم السمن و البصل
و الثوم أيضا.
ولكن ماذا ؟
ها هو ذا الماء يغلي ، فيلقون فيه بالملح و الموخية ، ثم يتناول أحدهم عودا من أعواد الذرة
الجافة ، فيجرده من اللحاء ، ويحرك به الطعام في الإناء
هنيهة ، ثم ينزله من فوق النار ، وإذا الأيدي جميعا تتسابق إلى الغرف من الإناء النحاسي
الكبير بإناء فخاري صغير يسمى " مقلاية " – مشتقى من
القلي– وها هو ذا بعضهم يشرب الملوخية في نهم ظاهر ، وبعضهم ينتحي بإنائه ناحية ثم يفت
فيه الخبز الغليظ الجاف ، و يتناوله بيده في نهم غليظ..
ولم يستطع الصبي ان يصدق عينيه .. لقد كان حاضرا طوال العملية ، ولكنه مع ذلك لا يصدق
، أطعام بلا لحم ولا سمن ولا ثوم ولا بصل ولا حتى فلفل ، ثم يستطيع ناس ان يطعموه ، فضلا
على ان يقبلوا عليه هذا الإقبال ؟
وطار إلى الطابق الثاني حيث أبوه و امه و اختاه ، فأنهى إليهم الخبر ، كأنما يروي اسطورة
غير قابلة للتصديق .. وبالفعل كانت عندهم اسطورة.
فإن أحدا لم يشك في انه يمزح مزحة كبيرة.
ولكن ها هو ذا يقسم ، فتزداد حيرة الجميع بين الاسطورة العربية وهذا القسم المكرر الأكيد ،
ثم يراجعونه : لعله لم يلق باله إلى اللحم و السمن .
لعل القوم يصنعون طعامهم بطريقة اخرى يختلف ترتيبها عن طريقة أهل البيت ، فهو لم ينتبه
إلى إلقاء أشياء الطيخ في مواعيدها..
اما هو فلا يكذب نظره .. انما يرجو اباه ان يرافقه ليسالهم أمامه ، وليعلم الخبر اليقين ، ومع
ان والده كان وقورا رزينا ، فان غرابة الحادثة قد
استخفته ، فاذا هو يتبع الطفل الصغير الذي سبقه في هبوط الدرج بسرعة وعجلة ، لاثبات هذا
الأمر الخطير.
وعلم الوالد حقيقة النبأ ، فإذا هو يفرك يديه من العجب والحيرة في أمر هؤلاء الناس ، وإذا
هو يعلن إليهم انهم منذ الغد سيأكلون في الدار أكلتهم

المعروفة مع بقاء نصف القرش الذي طلبوه .. وإذا بألسنة الجميع تتوجه إلى الله بالدعاء ، واكفهم ترتفع للثناء .. على هذا الرجل العظيم السخاء!
وانصرف الوالد قبل ان يستكمل القوم دعاءهم له بالسعادة و طول العمر ، ودعاءهم لطفله وابنائه بالحياة و الصحة..
اما الصبي فلم ينصرف ، ان امر أصدقائه ليكرثه ، وانه لشديد الرغبة في ان يعرف شيئا اكثر (عم)(١) حياتهم الحقيقية ، ولا سيما انه كان يحبس
فضوله عند إرسالهم للمبالغ الصغيرة ، فيكتفي بسؤال واحد كان يسمع له جوابا واحدا في كل مرة .. فلم يعد يسأل هذا السؤال..
ولقد علم في هذه الليلة أشياء كثيرة .. علم ان اللحم في حياة القوم فاكهة نادرة يذوقونها في عيد الأضحى من العام إلى العام، وعلم ان السمن شيء غير
معترف به في عالمهم ، فالزيت - وبخاصة زيت الخس الذي يكثر في جهاتهم بعض الشيء – يغني عن السمن في الطعام ، وعلم ان القمح مادة لا علاقة
لهم بها ، ففي الذرة الكفاية ، إذا تحنن الله عليهم ، فرزقهم بخبز الذرة الغليظ الذي يحملونه الآن ، وعلم ان السكر مادة يسمعون عنها في بيوت أثريائهم ..
مثل الشيخ " محمد أبوعليم " هذا الذي يأمنونه على أموالهم وعائلاتهم في غيبتهم .. فلقد بلغ من ثرائه ومن نعمة الله عليه ، انه قد ينفق في كل شهر
رأسا من السكر في منزله ، وفي قهوة الضيفان الكثار الذين يؤمون هذه الدار ، وعلم ان هذه القروش القليلة التي يرسلونها إلى أهليهم خمس او ست مرات في العام ، هي دخلهم العائلي طوال العام ، ينتظرونه بفارغ الصبر ،
اللهم الا أولئك الذين " يبحرون " أي يذهبون إلى القاهرة و سواها ليعلموا " فعلة " فهؤلاء اكثر إيرادا ، لأن الواحد منهم يرسل إلى عائلته بالجنيه
والجنيهين على مدار السنة!
وعلم أشياء و أشياء ، لم يتبين عمق آثارها في نفسه ، وقسوة وقعها على حسه ، الا و هو يسترجعها الآن في الحين بعد الحين ، فيشعر في قرارة
نفسه بالخجل ، ويحس لنفسه ولشعبه بالازدراء.
انه سارق .. سارق لهؤلاء " الغرب " و أمثالهم من الملايين الكثيرة التي تنبت الذهب في الوادي . وتجوع .. سارق! ..

---

(1)هكذا في نسخة الكتاب ويبدو أن الأصح) عن) كما هو سياق النص .. الضبح

و لو كان في الوادي قانون عادل لقاده إلى السجن قبل أولئك الكثيرين الذين يحسبهم القانون لصوصا ومجرمين!

هذا هو الشعور الذي ظل يعاوده أبدا ، كلما جلس يتناول طعاما دسما ، او فاكهة لذيذة أو حلوى أنيقة ، أو يتمتع بأيسر مباهج الحياة بين ملايين المحرومين.!

أحزان الريف

عرف قلبه الصغير مرارة الحزن قبل الأوان .. كان ذلك يوم ان عاد من المدرسة ودخل على أمه كما يدخل فإذا هي " تعدد " أي تتحزن بصوت
مسموع ، مرددة بصوت خافت منظومة من تلك المنظومات الكثيرة التي تتخذ " للعديد " و الدموع تسح من مآقيها في غزارة ، وهي تغالبها – حين
شاهدته - فلا تستطيع.

كانت هذه أول مرة رأها تبكي ، ولم تكن سنه تجاوز العاشرة . لقد رآها قبل ذلك مكتئبة ، ولكنه ما كان يكاد يسألها : مالك يا أمي ؟ حتى تتكلف
البشاشة ، و تجيبه وهي تضمه إلى صدرها في حنان : لا شيء . متعبة قليلا.

اما في هذه المرة فهي تبكي بكاء صريحا .. هذه دموعها تنحدر من مآقيها انحدارا ، و هذه هي لا تتكلف البشاشة ، ولا تداري الألم . وهذا هو يقف
مشدوها على قيد خطوات منها كأنما يتوجس شرا فلا ينبس ببنت شفة ، ولكنه يقف تجاهها واجما .. وتنتبه هي لوجوده ووقفته مأخوذا أمامها فتغالب
دموعها المنهلة فلا تستطيع ، ثم تتماسك و تدعوه إليها فيرتمي في حضنها ، ويدفن وجهه في صدرها ، و قد انتقل إلى قلبه الصغير سواد أشجانها ،
فإذا هو يبكي دون ان يعرف لبكائه سببا ولا لبكائها!

وهنا يستيقظ قلب الأم ولهفتها على ابنها الوحيد .. كان وحيدها إلى ذلك الحين ، وبجانبه أختان إحداهما تكبره بثلاثة أعوام والأخرى تصغره بمثلها..

ولم تكن بعد قد رزقت بأخيه الصغير ولا بشقيقتيه الأخريين فيصيروا أسرة لا يخشى عليها النفاد ! وإذا هي تربت عليه وتضمه إليها في حنو ، وهو
مغرق في بكائه .. فلما طلبت إليه ان يسكت سألها الا تبكي مرة أخرى ، فقالت تهدئ روعه – ولعلها تهدئ من روعها – : لن ابكي يابني ما دمت تعيش .. البركة فيك أنت . وحياتكم –

تعنيه واختيه – أنتم وابيكم عندي كفاية!
وسكت الصبي ، وتطلع إلى وجهها فإذا الدموع قد جفت ، وإذا هي ناشطة مستبشرة حقا ،
فاعداه استبشارها ، وتشجع على سؤالها مالك يا أمي ؟
ونظرت إليه في عينيه ، وكأنما أحست ان طفلها قد صار رجلا ، وانه قد آن الأوان لأن تطالعه
ببعض أشجانها ، فقالت له:
-أقول لك يا فلان ، وتعدني ان تكون رجلا ؟
-وهزته كلمة " رجل " هذه ، فلقد كان شديد التوقان لأن يكبر سريعا وقال:
-بكل تأكيد
-قالت : لقد باع أبوك اليوم قطعة ارض.
ولم يكن إلى ذلك الحين يدري معنى هذا على وجه التحقيق .. كان قد بعث به إلى المدرسة
صغيرا واستغرقته حياة المدرسة ، ولم تشغل باله احوال
الزراعة و الفلاحة كما تشغل من هم في مثل هذه السن في القرية ، حتى ليدركون معنى هذه
الجملة لو قيلت لواحد منهم!
وبدا عليه شيء من التساؤل عن معنى هذا الخبر وعلاقته بالبكاء ، فأردفت أمه تقول:
-ومعنى هذا ان غيطنا ينقص . وقد نقص من قبل مرات بمثل هذا البيع . فأبوك ما بين عام
وآخر يبيع مقدارا من الطين .. وإذا استمرت
الحالة هكذا
فسيأتي يوم لا يكون لنا ارض ، ولا غيط ولا بيت ولا بهائم ولا شيء من هذا كله الذي تراه.
هنا كان قد فهم – أو أحس عظم الكارثة التي تتهدده – تتهدده هو شخصيا .. فهل سيفقد هذا
الغيط الذي يذهب إليه في يوم الجمعة ، فيجري و يقفز
ويمرح ويعبث بمن يشتغلون فيه ، ومن يسرحون بهائمهم هناك ؟ .. بهائمهم ! وهل سيفقد
هذه البهائم ؟ وبخاصة هذه البقرة التي يعتز بها ، و التي
تتغير مواشيهم ما تتغير وهي باقية لا يبيعونها لما لها من ميزات خاصة في إدرار اللبن ،
وكثرة الزبد .. واهم من ذلك ، الصداقة الوثيقة التي تربطه
بها كما تربط أختيه و والدته ، وقد عاصرت نشأته ونشاة أختيه تقريبا فأصبحت " شخصية "
عزيزة عليه وعلى جميع من في الدار ؟
ثم البيت .. هل يفقد هذا البيت ؟ وهنا أحس له بإعزاز لم يشعر بمثله قط ، بيتهم الفسيح
الجميل . والبئر الخاصة به .. تلك البئر التي تسقي منها
دوابهم
و دواب الشارع كله ، والتي يزهى بوجودها في دارهم واضطرار الناس لأن يتملقوهم حين
يفدون ببهائمهم على حوضها ، ويدللوه هو بصفة خاصة ،

وهو يستعرضهم مع مواشيهم ، ويحس بنشوة عظيمة لتفرد منزلهم بهذه الميزة الكبيرة ..
ميزة ان بقرتهم و دوابهم لا تخرج من البيت لتشرب كما
تخرج دواب الناس!
ثم " رواق الفرن تلك الحجرة الخاصة بالفرن في الدور الثاني . وهي غير الفرن التي بالدور
الأول .. وهذه ميزة أخرى فللناس فرن واحد لضيق
بيوتهم . اما بيتهم هذا المهدد بالفقدان فيه فرنان ، واحد يستعمل في الشتاء للدفء ، و هو
بالدور الأول وواحد يستخدم لمجرد الخبز صيفا وهو في
الحجرة أو في هذا الرواق المثقوب سقفه فوق الفرن لإخراج الدخان ، و المقصوص حائطه
لنفس الغرض ، مما كان يتيح له ولشقيقته الكبيرة ان
يقفزا
من هذه الحائط الناقص من السطح واليه ، بينما أختهما الصغيرة تحاول فلا تستطيع ، فيعبثان
بها قليلا وهي تصرخ . ثم يتلقفانها بينهما من هنا
ومن هناك!
ثم " المحاش " وهو حجرة طويلة جدا في جانب من البيت غير مسقوفة ، يخزن فيها التبن و
أعواد الذرة الجافة وحطب القطن ، كيلا تتعرض للحريق
ان خزنت فوق السطوح على عادة القرية – لأن انفساح الملك قد هيأ لبيتهم هذه الميزة – هذا
المحاش الذي كان يرتفع التبن فيه عند دخوله إلى أقرب
سطح الدور الأول ، فيسهل عليه وعلى أخته الكبرى ان يثبا من السطح فوق هذا التبن دون ان
يتعرضا لخطر ، ثم يجريا فيصعدا سلم البيت
من الناحية
الأخرى للقفز من جديد وهما يتسابقان.
ثم الدرب الخاص أمام البيت مرتعه مع لداته من الصغار يلعبون فيه الكرة وشتى الألعاب
القروية الساذجة...
و ظل خياله يستعرض عشرات من هذه الصور الحبيبة في لمحة خاطفة ، و يود لو يضم يديه
على كل صورة منها فيمسك بها خوف الإفلات..
أهذا كله مهدد بالضياع ؟ ولم يصدق شيئا من هذا الذي يقال . فالتفت إلى أمه شبه مغضب .
وهو يقول:
-ولكن لماذا يبيع أبي هذا الطين ؟
قالت:
-لأنه كان عليه نقود للناس ولا بد أن يردها لهم.
ولم يكن هذا جوابا شافيا . فلماذا يكون عليه نقود للناس ؟ وكيف يكون ذلك و هو يرى النقود

دائما في كيسه الأبيض الطويل كثيرة ، وهو يشتري كل
شيء من هذه النقود ؟
ولعلها أدركت في هذه اللحظة أنها أخطأت واستعجلت ميعاد الإفضاء إلى الطفل الصغير ،
فأرادت أن تنهي المناقشة وتصرفه عنها .. ولكنه أصر على
ان يعرف ، فتبسطت معه في الشرح ، حتى استطاع ان يفهم ان والده ينفق في كل عام اكثر
من ايراده ، فلا بد ان يؤدي هذا الفرق ببيع بعض
الأطيان!
وهنا أدرك المسألة بحذافيرها ، و أحس بحقيقة الخطر ، ولكن ذهنه الصغير لم يكن ليحتمل
امتداد التخيل حتى يصل إلى ذلك اليوم البعيد .. قال:
-لا يا أمي . لن نبيع بيتنا ولا حقلنا . ولا بهائمنا هذه . ولن نبيع بقرتنا (الكبير . (1) (وكأنما
استروحت الأم ريح الأمل في كلمات طفلها الساذجة ..
قالت:
-ربنا يسمع منك يا بني.
ثم ضمته إليها . ثم أبعدته عنها قليلا وجعلت عينيها في عينيه ، و جمعت في نبرات صوتها كل
حرارة إيمانها وهي تقول:
-اسمع يا فلان ، أنت عليك ان ترجع ما ينقده أبوك!
ومع ان حرارة يقينها قد نفذت إلى قلبه ، الا انه ظل لا يفهم كيف يستطيع – وهو بين يديها –
ان يقوم بهذا العمل العجيب . فبدت في نظراته كل
معاني
الاستفسار!
قالت:
-حين تكبر ستذهب إلى مصر – عند خالك – فتتعلم هناك ، وتصبح أفندي و يكون لك مرتب ..
وعندئذ تتذكر ان أطياننا في البلد تباع بسبب إسراف
أبيك في النفقات ، فتحرص على النقود ، ولا تبذر كأخيك الأكبر أيضا ، بل تنفق في الضروري
فقط .. وعندئذ يكون في جيبك نقود كثيرة فتشتري
بها
هذه الأطيان التي نفقدها..
وبينما كانت هي مندفعة في آمالها العذبة ، التي تنوطها بطفلها الصغير ، كان خياله هو سابحا
في السفر إلى مصر، وفي " الأفندي" الذي سيكونه فلم
يتابع الحديث..
ولكنه تنبه فجأة ، وعلا وجهه الوجوم وهي تستطرد فتقول:

-ويجب ألا تكون مسرفا كأخوالك أيضا ، فهم مثل أبيك في الإسراف وأكثر .. وها أنت ذا تعرف انهم باعوا أطيانهم الواسعة وبيوتهم الكثيرة إلا
البيت
الواحد الصغير.
هنا تنبه ، فلقد كانت هذة ذكرى أليمة في نفسه .. انه لم يشهد مبدأ المأساة ، كان يشعر بها أينما سار في القرية ، فهو يسمعها من أفواه النسوة
وبعض
الرجال ، كما يسمعها من أمه مرارا وتكرارا في مرارة عميقة.
لقد كان جده لوالدته واسع الثراء ، فما كاد أخواله الأربعة يكبرون ويذهب اثنان منهم إلى الأزهر ويبقى اثنان للفلاحة ، حتى أسرف الجميع إسرافا
شديدا ، وماكاد جده يموت حتى بعثروا الثروة يمينا وشمالا حتى انتهت عن آخرها .. وعاد أحسنهم حالا هو خاله هذا الذي يشتغل بالتدريس
وبالصحافة
في القاهرة ، والذي تعيش معه جدته ، التي يحبها إلى درجة العبادة ويراها في فترات متباعدة
.
فحينما صورت له أمه هذا المصير الذي ينتظر بيت أبيه – لوسارت الحال على هذا المنوال – استطاع ان يدرك عمق الهاوية ، واندست في
نفسه أول بذرة
حقيقية للمسئولية ، وعرف لماذا كانت أمه دائما تستعجل تعليمه ، ولماذا كانت حريصة على ان يتعلم في المدرسة الأولية لافي الكتاب.
ان عليه ان يدرك البناء قبل ان ينهار.

---

(1)يبدو ان تاء التأنيث سقطت سهوا في نسخة الكتاب ... الضبح

* * *

كثيرات من نساء القرية كن يحملن في نفوسهن أشجانا كأشجان أمه ومخاوف كمخاوفها ، وان
لم يكن لهن أمل كهذا الأمل في أطفالهن الصغار ، لأنه
ليس لهن أخ في القاهرة ، والقاهرة دائما في خيال القرويين تقترن بالفرج الواسع ، والانقلاب
من حال إلى حال.
ذلك ان الثروات في القرية محدودة عند الكثير من الأسر المتوسطة ، وهي تتوزع بالميراث
جيلا بعد جيل ، فما تكاد تصل إلى الجيل الثالث أو الرابع
حتى تكون قد تضاءلت ، ما لم يجد في الأمر جديد ، وتجد الأسر الطيبة نفسها في حالة من
التدهور المالي وأحيانا الفقر المدقع والخراب الكئيب لبيوت
كانت عامرة مطروقة وتظل هذه ذكرى دامية في نفس كل فرد ، وعند النسوة بشكل خاص ،
فيطغى الشجن على البيت ، ويخيم عليه الظلام ، مالم يبزغ فجر أمل جديد..
وأحزان الريف راكدة طويلة ، لأن الزمن هناك بطيء الخطى ، متماثل الحركات .. فالموت الذي
يعدو على أفراد الأسرة واحدا بعد واحد ، يحمل
دائما معه ظلا أسود كثيفا يجثم على كل صدر ، ويبدو في كل مظهر .. ويحتفظ الريفون طويلا
بأحزانهم لأنها تغذي نفوسهم التي تظللها الكآبة من كل
جانب ، كآبة الفقر بعد الغنى – وهي مريرة - وكآبة الفقر الأصيل الموروث – وهي أليمة –
وكآبة الموت وذكرياته ، والوفيات في الريف كثيرة
ودائمة يعوضها النسل الكثير ، ولكن كل وفاة هي ذكرى دائمة في قلب أم أو زوج أو شقيقة ،
تظل تنضح بالأسى كلما جمعها مأتم ، أو لمزها الزمان
بحادث ، فتلجأ إلى العديد الشجي الكئيب.
وحين يجد الرجال أنفسهم في الحقل يستطيعون أن ينسوا ، وهذا الضياء المشرق يغمر نفوسهم
فيجلوها ، وتفتح الزرع بعد اسوداد الأرض ينبت في
نفوسهم
آمالا خفية لا تدركها سذاجتهم العميقة .. ولكن النساء اللواتي لا يغادرن الدور –غالبا– ماعدا
الفقيرات جدا اللواتي يذهبن إلى الحقول نادرا في
الصعيد – هؤلاء النساء ما الذي ينسيهن الأحزان والبيوت مظلمة ، وقاعاتها كئيبة وبخاصة
حين يجن الليل ، فلا ينير البيوت إلا تلك المصابيح الخافتة
مصابيح البترول الصغيرة ، تريق نورها الضئيل الباهت على الجدران السوداء ، فتتراقص

ظلالهم فوقها كالأشباح ، ويخيم على البيت ومن فيه شعور كامد من الشجن والأسى.
ثم الألوان القاتمة في اللباس ، فالعروس وحدها في الأعوام الأولى هي التي يقبل منها الوسط
ان تتزين ، وترتدي الملابس البهيجة وان تبتهج أيضا
فإذا انقضت عليها سنوات ، وتقدمت بها السن فوصلت الثلاثين ، وجب عليها ان " تحتشم" فإذا
ظلت على زينتها وملابسها البهيجة ومرحها النفسي
لاكت الألسن سيرتها ، وكانت موضع النقد من كل جانب ، في السن التي تبدأ زميلتها في
المدينة حياتها الحقيقية البهيجة.
وللعنصر الاقتصادي دخل في هذا كله ، فالملابس البهيجة ، تكلف ، والنظافة الدائمة تكلف ،
والثياب القاتمة تحتمل ولا يبدو عليها الوسخ ، فهي لذلك
أوفر .. ولكن القوم لا يحبون ان يعترفوا بأن العوامل الاقتصادية هي التي تحدد لهم طريقة
السلوك ، فيحيلوها مسألة خلقية ، وإذا البنت أو المرأة
التي لا تتزين ولا تتنظف ، هي النموذج الخلقي المطلوب.

* * *

شهر واحد في العام كانت القرية تبتهج فيه وتنسى أحزانها .. ذلك شهر رمضان ، والسر في
هذا الابتهاج هو أولا النور ، النور الذي ينتشر للزيارات
ويقرأ فيها المقرئون القرآن طوال شهر رمضان ، ثم المصابيح التي تعلق على بعض الأبواب
فيهتدي بها المارة الكثيرون الذين يسهرون ويتأخرون
في السهر آمنين من العفاريت لأنها مقيدة في شهر رمضان كعهدها القديم مع النبي سليمان ! ،
وليس للنور وحده تبتهج القرية في رمضان ، ولكن
كذلك
للطعام.
ان القرية سواء في ذلك فقراؤها وأغنياؤها تستعد لهذا الشهر المبارك بالغذاء الممتاز في
الفطور والسحور ، وتطبخ كل يوم على وجه التقريب ، وتأكل
اللحم والفاكهة بكميات أوفر ، وتبدو فيها حركة واضحة في الاستعداد لهذا كله ، وحين تجد
القرية النور والغذاء في شهر رمضان تنسى أحزانها الدفينة ،
وتبتهج للحياة في نجوة من الحرمان والظلام.!

وفي المواسم والأعياد تتكرر هذة الظاهرة ولاسيما في المولد النبوي لتوافر مادتي الفرح الأصليتين ، ثم تخمد الحركة الطارئة ، وترتد القرية إلى
ظلامها
الدامس ، وإلى حرمانها الموروث وإلى أحزانها التقليدية ، فتبحر هذة الأحزان التي تسميها : " اغلاب الزمان."

اغلاب الزمان : غلب الفقر ، وغلب الحرمان .. ثم غلب الجور من الحكام ، فالريفي مرهق أبدا بالحكام ، مرهق بالضريبة على أطيانه القليلة ، مرهق بمطالب العمدة التي لاتنتهي بتلبية
لأوامر الحكومة ، تذاكر الجمعية الخيرية التي تجبى أثمانها من أناس هم أحوج مايكونون إلى معونة الجمعية الخيرية
وتذاكر الهلال الأحمر ، وتذاكر الإسعاف .. ثم سخرة الجسور ، وسخرة تنقية الدودة في مزارع الأثرياء ، وتفاتيشهم خارج القرية ، ومكافحة الجراد..
وما لا يحصى من هذه المأموريات التي يحس القروي فيها انه سائمة أو حمار شغل على الدوام

ثم غلب الكد المتواصل في الأرض والزرع ، لتوفير قوته من الذرة وياليته يجدها على مدار العام.
ثم غلب على التقاليد – وبخاصة على المرأة – التي لاترتفع في نظر الرجل عن السلعة ، فإذا كان بيت أهلها لايزال مفتوحا فهي محترمة إلى حد ما ،
لأن هناك مالا ينتظرها ، اما اذا خرب بيت أهلها – وكثير من البيوت يخرب كما أسلفنا– فهنا تعاني من الذل والتعيير مايحيل حياتها ظلاما في ظلام.

* * *

بين هذا الحزن الجاثم الكئيب ، وبين " اغلاب الزمان " كانت تنفرج ثنايا الزمن عن إبتسامة واحدة ، هم هؤلاء الأطفال الذين يمرحون ويلعبون فترة
طويلة من العام ، طلقاء من العمل والكد إلى سن معينة كانت تتجاوز العاشرة.
كان هذا قبل ربع قرن ، فلما عاد إلى القرية الحبيبة ، يتفقدها ويسأل فيما يسأل عن مرح الصغار .. قيل له لقد انتهى كل شيء ، لقد انطفأت هذة
البسمة
الأخيرة في وجه الزمان الكئيب ، لقد أصبحت المعيشة عسرة شاقة ، فلم تعد تسمح للأطفال

والصبية باللعب والضحك والمراح .. انهم يندبون للعمل
في الحقول منذ السابعة أو السادسة ولقد اختفت من القرية مجتمعاتهم البريئة وألعابهم الجميلة.
ان الزمن عاد يرهقهم ويلهب ظهورهم ليكدوا منذ الحداثة .. وان غلب الزمن كله لفي كفة ،
وفي الكفة الأخرى قانون التعليم الإلزامي الذي ينتزع
الأطفال
من العمل ، فينتزع بذلك لقيمات من أفواههم ثم لا يعطيهم العلم ولايعطيهم الطعام.!

الرحيل

آن له ان يهجر القرية ، فما عاد له فيها بقاء.
ان هناك مهمة تنتظره . انه مجند اعد للكفاح .. مجند لهذه المهمة التي أعدته لها أمه أخفتها
عنه ، منذ أول يوم ذهب فيه إلى المدرسة ثم كشفت له عنها
يوم دخل عليها فرآها تبكي ! ان عليه ان يسترجع للأسرة ما تفقده من مركز و مال.
تلك كانت الكلمات التي سمعها من أمه وهي تعده للرحيل .. للسفر إلى القاهرة عند خاله ليتعلم
، فلقد بدأ يراهق ، وغادر مدرسة القرية منذ عامين ، ولولا الثروة و انقطاع المواصلات
واضطراب الأحوال لسافر منذ ذلك الحين.
ولكن هاهي ذي الحالة تهدأ ، وساعده هو يشتد ، و المهمة التي جند من اجلها تستعجله ،
فليسافر على بركة الله!

* * *

وتسامع بعض الصديقات من نسوة القرية بالخبر ، فحضرن ، وكأنما كن على اتفاق سابق فيما
يقلن .. ان ألسنتهن جميعا لتنطق بكلمات متقاربة.
مبروك يا أختي مبروك ، ان هذا الصغير هو الذي سيرجع ماضاع كله وسيكون بإذن الله شأنه
شأن .. فلان.

وكان هذا الرجل هو المثل في محيط القرية ، انفق عليه والده بسخاء حتى حصل على شهادته العالية في الوقت الذي كادت ثروة الوالد فيه تنتهي ، ثم
فتح الله عليه كما يقولون في القرية ، فطار صيته ، وحالفه الحظ ، واسترجع الثروة الضائعة ، وزاد عليها اضعافا .. وكان في قريته وما أحاط
بها من القرى ، مثلا للفرج بعد الشدة ، ولجبر خاطر البيوت الطيبة بعد الانحدار.

* * *

وكان كل شيء حول رحلة الفتى يوحي بأن له مهمة عظمى ، حتى لكأنه ذاهب لفتح عكاء .. !
ولكن هذا كله شيء ولهفة الوالدين) علة)(١) فراقه شيء
آخر..
لقد أحست أمه – وهي التي ظلت تستعجل رحلته ، وتهيء لها نفسها ، وتحيطها بالأحلام – لقد أحست الآن فقط ان الفراق الحقيقي شيء غير الفراق في
الخيال.
اما الوالد ، فقد ظل متماسكا متجملا ما ظل صامتا ، فاذا تحدث اختنقت في صوته الكلمات ، فصمت ولم يكمل خشية من الافتضاح.
واعدت له الأم طعام الإفطار من طعام لبني يشتهيه ، يسمونه في القرية " رشتة " و هي خيوط من عجينة القمح التي تدحى فطائر ، ثم تطبق ، ثم
تخرط بالسكين بطريقة خاصة ، فتصبح خيوطا رفيعة ، تنضج في اللبن والسكر ، و يوضع عليها السمن أو الزبد في الصباح!
كانت قد أعدت له هذا الطعام ليفطر ، ويفطروا معه جميعا .. و كان الترتيب ان يسافر إلى القاهرة مع ذلك الافندي الذي يتعلم في الحقوق في السنة
النهائية ، و الذي تربطهم به صلة المصاهرة العائلية ليسلمه إلى خاله ، رغبة في زيادة الاطمئنان عليه في السفر . وكان هذا الافندي قد اتفق مع طالب
أزهري على السفر في موعد واحد كذلك ، قطعا للوقت الطويل الذي يستغرقه القطار.
وبينما الفتى يجهز متاعه – ومايكاد – يطرق الباب ذانك الطارقان يطلبانه للركوب ، فقد حان الموعد لادراك القطار ، وكان الفتى مختلط الاحاسيس ،
موزع النفس ، شارد الفكر ، لا يدري أهو مستبشر بالسفر إلى القاهرة التي يحلم بها سنوات ، أم هو آس على فراق عالمه الذي صاحبه سنوات..

فلما جاءته الدعوة أنقذته من شروده ، فاندفع يسلم على أهله واحدا واحدا ، واحتضنته أمه ، وألصقته بصدرها كأنما تودعه كل حرارة القلب الملهوف،

ولم تطلقه إلا و أبوه ينتزعه منها برفق ، ويخنق في حلقه الكلمات ، لأن الطرق يتوالى و النداء..

ثم خرج .. و خرج والده يودعه ، و يستعجل وداعه ، ليفرج عن نفسه ، و يفصح في حرية عما يكتم من أشجان.

و نظرت أمه وأختاه إلى الصحفة التي كانت معدة للفطور .. نظرن إليها كأنما هي آخر ذكرى للفتى المسافر .. وطال نظرهن إليها وهن مشدوهات..

انها ذكرى مقدسة ، أو كنز مرصود!

وعاد الوالد من الوداع.

قالت الأم و الحروف ترتعش على لسانها.

-سافر ؟

قال الوالد:

-بسلامة الله!

وانفجر يبكي كالأطفال ! والأم الشجاعة تنسى أشجانها وتعزيه ! ثم تخلو إلى نفسها لتنفجر بالبكاء!

---

(1)هكذا وردت اللفظة في نسخة الكتاب ويظهر أن الأصوب (على) ... الضبح

- ملاحظة /

هناك بعض الأخطاء الاملائية وتجاوزات لأدوات الترقيم قد نقلتها كما هي في النسخة وقد تقع مني أثناء الكتابة ،
مع أنني عملت مراجعة وتدقيق للكتابة ، ولكنها مراجعة أولية لتطابق النص يردفها حينا التصحيح لتلك الأخطاء.

الضبْح